مكتبة
الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع

التراث

المختار من رحلات ابن بطوطة

زيارة مصر أم البلدان

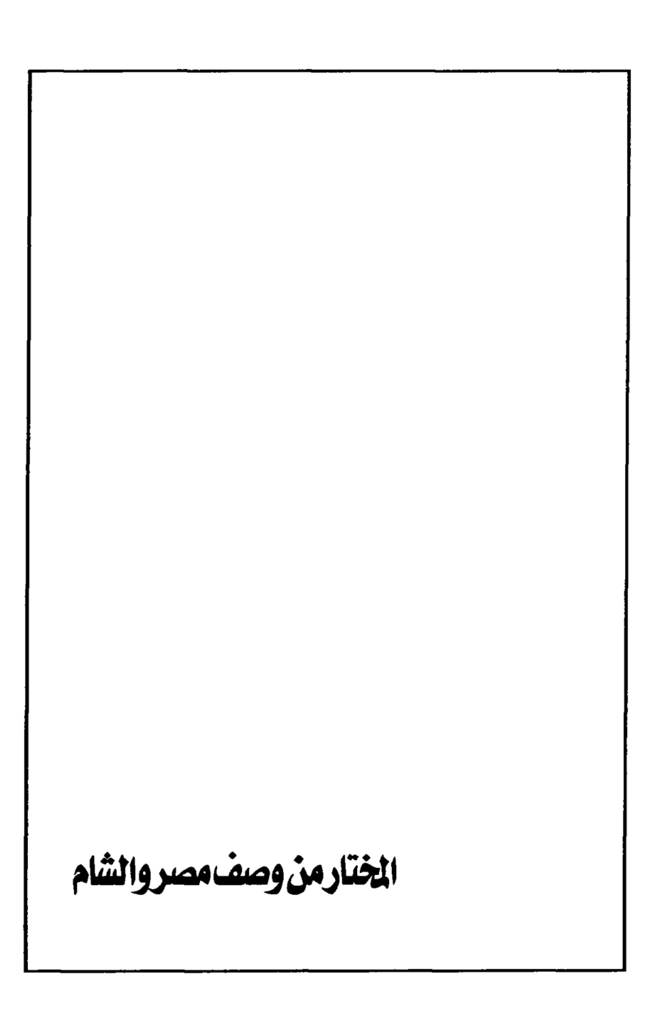
لوحة الفنان العالمي المستشرق شارل ويلدا



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



التراث



المختار من وصف مصر والشام

المختار
من وصف مصر والشام

رحلات ابن بطوطة



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة التراث)

وصف مصر والشام

المختار من رحلات ابن بطوطة

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

تصدير

شاع فى عصرنا تعبير « أدب الرحلات » والأرجح أن التعبير مترجم عن الإنجليزية (Travel Literature) أو غيرها من اللغات الأوربية ولكن التعبير الحديث لا يفى النوع الأدبى حقه ، فهو نوع تختلط فيه الفنون القصصية بفنون الوصف والتعبير عن المشاعر الشخصية إلى الحد الذى يقترب به من السيرة الذاتية (autobiography) ولذلك فهو نوع أدبى مختلط لم تعرفه أوروبا قبل العصور الحديثة ، ولم يزدهر إلا بعد الكشوف الجغرافية واستقرار اللغات الأوربية الحديثة ، وكان أكثر رحلات الأوربيين إلى الشرق ، منذ الحملات الصليبية واحتكاك الأوربيين بأمم المشرق العربى ، ولكن العرب كانوا السباقين إلى هذا النوع الأدبى ، وخير نموذج عليه هو رحلات ابن بطوطة ، وهو اللقب الذى أطلق على أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى الطنجى (نسبه إلى مدينة طنجة التى ولد بها عام ٧٠٣ هـ (١٣٠٤م) وفقاً لما ذكره ابن جزى) . وكان الدافع وراء الرحلة يشبه دوافع رحالى العرب والمسلمين فى ذلك

العصر وما سبقه ، ألا وهو حج بيت الله الحرام . ولكن ابن بطوطة لم ينتظر «موكب» الحج الرسمى الذى كانت السلطات توفر له ما يلزمه من حماية وزاد ، بل لم ينتظر أن يستكمل تعليمه الدينى ، بل أنطلق مثل غيره من علماء العصر (الإدريسى الجغرافى مثلاً) يدفعه الشوق إلى رؤية الدنيا ومشاهدة الآخرين ، وهذا دافع لم يكن مألوفاً فى الأزمنة الأولى ، وإن كنا نجده - كما يقول الدكتور حسين مؤنس - عند كبار الرحالة فى أدبنا الجغرافى الفنى «فالمقدسى أيضاً يقول فى فاتحة كتابه إنه خلق مولعاً بالتنقل والمغامرة والتجربة ومعرفة أحوال الدنيا ، وكذلك المسعودى فى تقديمه لمروج الذهب ، وأبو حامد الغرناطى فى حديثه فى تحفة الألباب» .

وهذا الدافع هو العنصر الذى يضفى الوحدة والتماسك الفنى على رواية ابن بطوطة ، فهو يسجل كل ما يمر به ، حتى أحواله الصحية ، ويصف ما يمر به ، ويرصد ما يراه ، وينقل ما يسمعه من أهل الأمصار ، بحيث خرجت رحلاته سجلاً حافلاً لحياة ذلك العصر ، وأصبحت تمثل أولى النماذج الحية فى أدبنا العربى على أدب الرحلات الحديث . وسوف يجد القارئ فى هذه المقتطفات التى لم نحذف منها إلا أقل القليل أصدق تمثيل لفكر العصر وأحواله ، منعكسة فى مرآة عقل ابن بطوطة ومشاعره ، فهى سجل موضوعى وذاتى معاً ، تمتزج فيه حقائق الجغرافيا

والتاريخ بأفكار الناس ومـشاعرهم التى كـان ابن بطوطة يتمثلهـا ويرويها كأنما هى مشاعره الشخصية .

ولكن الرواية التى يرويها ابن بطوطة ليست رواية كتبها بنفسه ، بل إنه أملاها على كـاتب تحرير هو مـحمد بن مـحمد بـن جزى الكلبى ، ولذلك فـإن المقـتطفـات الحاليـة تتـضـمن رواية ابن بطوط إلى جـانب استطرادات من جانب ابن جزى ، وفى هذا يقول ابن جُزَىّ :

« نفذت الإشارة الكريمة بأن يملى ما شـاهده فى رحلته من الأمصار ، وما عـلق بحفظه من نوادر الأخـبار ، ويذكـر من لقيـه من ملوك الأقطار وعلمـائها الأخـيار وأوليائهـا الأبـرار ، فأمـلى مـن ذلـك ما فيـه نزهة الخواطر ، وبهـجة المسـامع والنواظر . من كل غريبة أفـاد باجتـلائها ، وعجـيبة أطرف بانتـحائها . وصـدر الأمر العالى لعـبد مقـامهم الكريم المنقطع إلى بابهم المتشرف بخـدمة جنابهم . محمد بن مـحمد بن جزى الكلبى اعانة الله على خدمتهـم ، واوزعه شكر نعمتهم ، أن يضم اطراف مـا امـلاه الشـيخ أبو عـبد الله من ذلـك فى تصنيف يكون على فـوائده مشتملا ، ولنيل مـقاصده مكملا ، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيـبه معتمداً ايضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطُرَف ، ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف فامتثل مـا أُمر به مبادراً ، فى منهله ليكون بمعونة الله عن توفيـه الغرض منه صادراً ، ونقلت مـعانى كلام الشيخ أبى عـبد الله

بألفاظ موفيه للمقاصد التى قصدها ، موضحة للمناحى التى اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات وأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ، على أنه سلك فى إسناد صحاحها أقوم المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أنفع فى التصحيح والضبط ، وشرحت ما أمكنى شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطىء فى فك معماها معهود القياس وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلى ، أيده الله بمحل القبول ، وأبلغ من الأعضاء عن تقصيرى المأمول ، فعوائدهم فى السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة ، والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين »

ولذلك فقد بيَّنَّا قبل انتقال ابن جزى إلى رواية شىء من كلامه أنه استطراد ، وحددنا مواقع استئناف رواية ابن بطوطة نفسه ، حتى يدرك القارى أنه يقرأ نصاً مملىً لا نصاً مكتوباً ، وتركنا هذه الاستطرادات كاملة غير منقوصة حتى يرى القارئ مدى تعلق ابن جزى بالمفاهيم الأدبية التى كانت سائدة فى عصره ، وأهمها الاستشهاد بالشعر ، بل وباعتبار الشعر فصل الخطاب فيما يروى ، إذ كان الشاعر العربى حتى ذلك العصر –

وهو عصر ازدهار النثر على أيدى ابن خلدون مثلاً - ما يزال الحجة ، فهو يسجل وقائع حياة أمته ويروى تاريخها بثقة الذى يعف قدر الشعر وقدرته على الثبات فى الذاكرة .

وتكشف رحلة ابن بطوطة عن مدى وحدة الأمة الاسلامية فى تلك الآونة ، بل تكشف عن وجود «عالمين إسلاميين» فى حدود تعبير الدكتور حسين مؤنس الذى يفرق بينهما قائلاً :

« ذلك أنه كان هناك دائماً عالمان إسلاميان : عالم السياسة ، وكله خلافات وحروب ومكايد ، وعالم الأمة نفسها ، وهى وحدة متماسكة مترابطة . . . فقد قطع ذلك الرجل المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ، ووجد فى كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام ، لا على سبيل التكرم أو التفضل ، بل لأنه كان هناك تنظم محكم وضعته الأمة وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة - ذلك هو نظام الزوايا والرُبَط - جمع رباط - وهى دور ضيافة ينشئها بعض رجال الطرق الصوفية ، أو بعض أهل الخير ، أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخاص ، وقد تنشئها الجماعة نفسها ، وتتولى أمرها ورعاية النازلين بها ، من أموال تجمع لهذا الغرض » .

ومن يقرأ هذه الفصول الثمانية يشعر على الفور بمدى اتساع رقعة هذا الوطن العربى ومدى سهولة الانتقال من مكان لمكان رغم الصعوبة المادية المتمثلة فى سوء الطرق ووسائل النقل ، فلم تكن هناك حدود بين إقليم وإقليم ، وكان إقصى ما يتعرض له المسافر من ضروب المعاناة هو الضرائب «الجمركية» التى تفرضها الحكومات عى البضائع ، فإذا كان مسافراً فرداً دون بضائع لم يقف دون مروره حاجز أو حائل ، ولم يشاهد ابن بطوطة أى حواجز تذكر إلا عندما عبر حدود مصر الشرقية إلى الشام فهو يقول فى آخر الفصل السادس :

« ثم وصلت إلى الصالحية ، ومنها دخلنا الرمال ، ونزلنا منازلها مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة ، وبكل منزل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته . ومن منازلها قطيا المشهورة ، والناس يبدلون ألفها هاء التأنيث ، وبها تؤخذ الزكاة من النجار ، وتفتش أمتعتهم ، ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكُتّاب والشهود ، ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب ، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر

إلا ببراءة من الشـام ، احتياطاً على أمـوال الناس ، وتَوَقّياً من الجواسيس العراقيين . . . »

والقارىء يلاحظ فى سـرد ابن بطوطة مدى اهتمـامه بلقاء الشـيوخ وكبار جـال الصوفيـة والعلماء وأصحاب الكرامـات ، وهو يرصد ترابط أصحاب الحـرف فى تنظيمات أشبه ما تـكون بالنقابات ، وكان «الرباط» الذى يربطهم هو الحـامى لهم من صـروف الدهر وغـيـره ، ومن بطش الحكام وقسوتهم ، كـما يتضمن نوعاً من الترتيب والتـصنيف تحدث عنها المؤرخون العرب فأسبهوا .

وقـد اقتصرنا فى هذه المقـتطفات المستفيضة على صـورة مصر والشام فـى العصر الذى كـانتا تخضعان فيه لحـكم سـلاطين المماليك البـحرية مـن أيام ركـن الـدين بيبـرس الجاشنـكيـر ثـم السلطان الناصر قلاوون ثـم أولاده وحـفدته ، وهذا هو أزهى عـصور المـماليك وأشدها رخـاءً ، وكان ذلك كله مما ساعد ابن بطوطة على التنقل بحرية بين الشام ومصر ، فزار الصعـيد ثم عاد إلى الوجه البحرى ثم مـضى إلى ربوع الشام فدخل غـزة ثم زار مدن لبنان والأردن وسـوريا وكلها دولة واحدة **مع مصر** ، ومن هنا كـانـت الإشارة إلى «الجـواسيس العراقـيين ، فى آخر المقـتطف السابق .

كما قسمنا المقتطفات إلى ثمانية فصول ووصفنا عناوين جانبية للنقاط

المهمــة تيســيراً على القــارئ ، وبعض الحواشى لأسمــاء البلدان ، وذلك استجابة لطلب القراء الذين أعربوا عن حــاجتهم لمقتطفات وافية من رحلة هذا الرحالة الفذ ، والتــركيز على أماكن بعينهــا مع عدم حذف أى شىء يهم القارئ الحديث .

ويسر مكتبة الأسرة أن تقدم هذا الجزء من رحلات ابن بطوطة ، آملة أن يسعد قلوب القراء فى كل مكان .

والله من وراء القصد ،

مكتبة الأسرة

الفصل الأول

بداية الرحلة

قال الشيخ أبو عبد الله : كان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته ، وركب أكون فى جملته لباعث على النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم . فجزمت أمرى على هجر الأحباب من الأناث والذكور . وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور . وكان والدى بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصباً ، ولقيت كما لقيا من الفراق نصباً ، وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة .

استطراد لابن جزى

قال ابن جزى : أخبرنى أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة فى يوم الأثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة .

استئناف رواية ابن بطوطة :

وكان ارتحالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الذى رويت أخبار جوده موصولة الأسناد بالإسناد ، وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الإشهاد . وتحلت الأيام بحلى فضله . ووقع الأنام فى ظل رفقه وعدله . الإمام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناص الدين الذى فل جد الشرك صدق عزائمه . وأطفأت نار الكفر جداول صارمه . وفتكت بعباد الصليب كتائبه . وكرمت فى اخلاص الجهاد مذاهبه . الإمام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحياطلّه وتهتانه . وجزاهم أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين . وابقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين ، فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمر اسن ابن زيان . ووافقت بها رسولى ملك أفريقية السلطان أبى يحيى ، رحمه الله ، وهما قاضى الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن علي ابن إبراهيم النفزاوي ، والشيخ الصالِح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشى الزبيدى - نسبة إلى قرية بساحل المهدية - وهو أحد الفضلاء ، وفاته عام أربعين .

الوصول إلى تلمسان بالجزائر :

وفى يوم وصولى إلى تلمسان خرج عنهـا الرسولان المذكوران فأشار على بعض الأخوان بمرافقـتهما ، فاستـخرت الله ، عز وجل ، فى ذلك واقمت بتلمـسان ثلاثاً فى قضاء مـأربى وخرجت أجد السيـر فى آثارهما فوصلت مـدينة مليانة وادركـتهـما بها ، وذلك فى أبان القـيظ ، فلحق الفقيهين مـرض أقمنا بسببه عشراً ثم أرتحلنا ، وقـد اشتد المرض بالقاضى منهما ، فأقمنا ببعض المياه ، على مسافة أربعة أميال من مليانة ، ثلاثاً ، وقضى القاضـى نحبه ضحى اليوم الرابـع ، فعاد ابنه أبو الطيب ورفـيقه أبو عبد الله الزبيدى إلى مليانة ، فقـبروه بها وتركتهم هنالك ، وارتحلت مع رفقة مع تجار تونس منهم الحاج مسـعود بن المنتصر ، والحاج العدولى ومحمد بن الحجر . وصلنا مدينة الجزائر واقمنا بخارجها أياماً إلى أن قدم الشيخ أبو عبـد الله وابن القاضى فتوجهنـا جميعاً على منبـجة إلى جبل الزان ، ثم وصلنا إلى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عـبد الله بدار قاضيها أبى عبد الله الزواوى ، ونزل أبو الطبيب ابن القاضى بدار الفقيه أبى عبد الله المفسر .

ظلم حكام دولة الموحدين :

وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبد الله مـحمد بن سيد الناس الحاجب، وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتـهم من مليانة محمد بن الحجر

الذى تقدم ذكـره ، وترك ثلاثة آلاف دينار ، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرب بابن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس ، فانتهى خبره لابن سيـد الناس المذكور ، فانتـزعها من يده ، وهذا أول مـا شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم .

ولما وصلنا إلى بجاية كما ذكرته اصـابتنى الحمى فأشار على أبو عبد الله الزبيدى بالإقـامة فيهـا حتى يتمكن البـرء منى فأبيت ، وقلت : أن قضى الله ، عـز وجل بالموت فتكون وفاتى بالطريق ، وأنا قـاصد أرض الحجاز ، فقال لى : أما أن عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا اعيرك دابة وخبـاء ، وتصـحبنا خـفيفـاً ، فإننا نجد السـير خوف غـارة العرب فى الطريق . ففـعلت هذا وأعارنى ما وعـد به جزاه الله خيـراً . وكان ذلك أول ما ظهر لى من الألطاف الالهية فى تلك الوجهة الحجازية .

ذكر قسنطينة :

وسرنا إلى أن وصلنا مـدينة قسنطينة فنزلنا خارجهـا ، واصابنا مطر جود ، فـاضطررنا إلى الخروج عن الأخبـية ليلاً إلـى دور هنالك ، فلما كان من الغـد تلقانا حاكم المدينة ، وهو من الشـرفاء الفضـلاء ، يسمى بأبى الحسن ، فنظر إلـى ثيابى وقد لوثهـا المطر فأمر بغـسلها فى داره ، وكان الاحـرام منها خلقاً فـبعث مكانه أحـراماً بعلبكياً ، وصـر فى أحد طرفيه دينارين من الذهب ، فكان ذلك أول ما فتح به علي في وجهتى .

مدينة بونة :

ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة ، ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها أياماً ثم تركنا بها من كان فى صحبتنا من التجار لأجل الخسوف فى الطريق ، وتجردنا للسير ، وواصلنا الجد ، وأصابتنى الحمى ، فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ، ولا يمكننى النزول من الخوف ، إلى أن وصلنا مدينة تونس ، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبى عبد الله الزبيدى ، ولقاء أبى عبد الله النفزاوى ، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم على أحد لعدم معرفتى بهم ، فوجدت من ذلك فى النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة ، واشتد بكائى ، فشعر بحالى بعض الحجاج ، فأقبل على بالسلام والإيناس ، ومازال يؤنسى بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين .

استطراد من ابن جزى تعليقاً على رواية ابن بطوطة :

قال ابن جزى : أخبرنى شيخى قاضى الجماعة اخطب الخطباء أبو البركات ، محمد بن محمد إبراهيم السلمى ، هو ابن الحاج البلفيقي : أنه جرى له مثل هذه الحكاية قال : قصدت مدينة بلاد من بلاد الأندلس فى ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبى عبد الله بن الكماد ، وحضرت المصلى مع الناس ، فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام ، وأنا فى ناحية لا يسلم على أحد

فقصد إلى شيخ من أهل المدينة المذكورة ، وأقبل على بالسلام والإيناس ، وقال : نظرت إليك فرأيتك متنبذاً عن النـاس ، لا يسلم عليك أحد ، فعرفت أنك غريب ، فأحببت إيناسك ، جزاه الله خيراً .

دخول تونس :

وكان سلطان تونس عند دخولى إليها السلطان أبا يحيى ابن السلطان أبي زكريا يحيى ابن السلطان أبى إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبى زكريا يحيى ابن عبد الواحد بن أبى حفص ، رحمه الله . وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء منهم قـاضى الجماعة بها أبو عبد الله مـحمد بن قاضى الجمـاعة أبى العبـاس أحمد بن مـحمد بن حـسن بن محمـد الأنصارى ألخزرجي البلنسى الأصل ثم التونسى هو ابن الغماز ، ومنهم الخطيب أبو إسحاق إبراهـيم بن حسين بن علي بن عبد الرفـيع الربعي ، وولي أيضاً قضاء الجمـاعة فى خمس دول ؛ ومنهم الفقيـه أبو على عمر بن علي بن قداح الدهوارى ، وولى أيضـاً قضاءها ، وكان من أعـلام العلماء ، ومن عوائده أنه يسـتند كل يوم جمعة بـعد صلاتها إلى بعض أسـاطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ، ويستفتيه الناس فى المسائل ، فلما افتى فى أربعين مسألة أنصرف عن مجلسه ذلك .

وأظلنى بتـونس عيد الفطر فـحضـرت المصلى ، وقد احتـفل الناس لشهود عـيدهم وبرزوا فى أجمل هيئة وأكـمل شارة ، ووافى السلطان أبو

يحيى المذكور راكبا وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم ، فى ترتيب عجيب ، وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وأنصرف الناس إلى منازلهم ؛ وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبى يعقوب السوسى من أهل أقل من بلاد أفريقية ، وأكثره المصادمة ، فقدمونى قاضياً بينهم . وخرجنا من تونس فى أواخر شهر ذى القعدة سالكين طريق الساحل ، فوصلنا إلى بلدة سوسة ، وهى صغيرة حسنة مبنية على شاطىء البحر ، بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلاً ، ثم وصلنا إلى مدينة صفاقس ، وبخارج هذه البلدة قبر الإمام أبى الحسن اللخمى المالكى ، مؤلف كتاب التبصرة فى الفقه .

استطراد من ابن جزى :

قال ابن جزى فى بلدة صفاقس يقول على بن حبيب التنوخى :

سقياً لأرضِ صَفاقسٍ ذات المصانع والمُصلىّ

محمى القصير إلى الخليج فقصرُها السامى المعُلىّ

بَلَدٌ يكادُ يقُول ، حين تَزورهُ : أهلاً وسهْلا

وكأنه ، والبَحرٌ يحسُر تارةً عنهُ ويَمّلا

صبٌ يريدُ زيادةً فإذا رأى الرقْباء ولىّ

وفى عكس ذلك يقول الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبى تميم وكان من المجيدين المكثرين :

صفـاقس لاصفا عيش لسـاكنها ولاسقى أرضها غيث إذا انسـكبا

ناهيك من بـلدة من حل ساحتها عانى بها العادين : الروم والعروبا

كم ضل فى البـر مسلوباً بضاعته وبات فى البحر يشكو الأسر والعطبا

قد عاين البحـر من لؤم لقاطنها فكلمـا هم أن يدنو لهـا هربا

استئناف رواية ابن بطوطة :

ثم وصلنا إلى مدينة قابس ، ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشراً لتوالى نزول الأمطار .

استطراد من ابن جزى :

قال ابن جزى : فى ذكر قابس يقول بعضهم :

لهـفى على طـيب ليـال خلت بجـانـب البطحـاء مـن قـابس

كـأن قـلبى ، عند تذكـارها ، جـذوة نار بـيـد قـابس

استئناف رواية ابن بطوطة والوصول إلى طرابلس :

ثم خرجنا من مـدينة قابس قاصدين طرابلس ، وصـحبنا فى بعض

المراجل إليـها نحـو مائة فارس ، أو يزيـدون ، وكان بالركب قـوم رماة فهـايتهـم العرب وتحامـت مكانهم ، وعصـمنا الله منهم ، وأظلنا عـيد الأضـحى فى بعض تلك المراحل ، وفـى الرابع بعـده وصلنا إلى مـدينة طرابلس ، فأقـمنا بها مـدة ، وكنت عقـدت بصفاقس على بـنت لبعض أمناء تونس ، فبنيت عليها بطرابلس ، ثم خرجت من طرابلس ، أواخر شهر المحرم ، من عام ستة وعشرين وسـبعمائة ومعى أهلى وفى صحبتى جمـاعة من المصـامدة ، وقـد رفعت العالـم ، وتقدمت عليـهم . وأقام الركب فى طرابلس خوفاً من البرد والمطر وتجاوزنا مسلاته ومسراتة وقصور سرت ، وهالك أرادت طوائف العـرب الإيقاع بنا ثم صرفتـهم القدرة ، وحالت دون ما راموه من أذيتنا .

ثم توسطنا الغابة ، وتجاوزناها إلى قصر برصـيصا العابد ، إلى قبة سلام ، وادركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ، ووقع بينى وبين صهرى مشـاجرة أوجبت فراق بنته ، وتزوجت بنتاً لبـعض طلبة فاس ، وبنيت بها بقـصر الزعافية ، وأولمـت وليمة حبست لهـا الركب يوماً ، وأطعمتهم .

الفصل الثانى

الوصول إلى الإسكندرية

ثم وصلنا فى أول جمـادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية ، حرسـها الله ، وهى الثغـر المحروس والقطر المأنوس ، الـعجيـبة الشـأن الأصيلة البنيان ، بها مـا شئت من تحسين وتحصين ، ومـآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ولطفت معانيها ،وجمـعت بين الضخامة والأحكام مبانيها ، فهى الفـريدة فى تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حـلاها ، الزاهيـة بجمالـها المغرب ، الجـامعة لمفتـرق المحاسن ، لتوسطها بين المشـرق والمغرب ، فكل بديعة بها أجتلاؤها ، وكل طرفة فاليها انتهاؤها . وقد وصف الناس فأطنبـوا . وصنفوا فى عجائبـها فأغربوا ، وحسب المشـرف إلى ذلك ما سطره أبو عبيد فى كتاب المسالك .

وصف الإسكندرية :

ولمدينة الإسكندرية أربعة أبواب ، باب السِّدرة ، وإليه يشرَع طريق المغرب . وباب رشيـد . وباب البحر . والباب الأخـضر ، وليس يُفتحُ

إلا يوم الجمعة ، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور . ولها المَرْسى العظيم الشأن ، ولم أرَ فى مراسى الدنيا مثله ، إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ، ومَرسى الكفار بسُرداق ببلاد الأتراك ، ومرسى الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها .

منار الإسكندرية القديم :

قصدت المنار فى هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدماً . وصفته أنه بناء مربع ذاهب فى الهواء ، وبابه مرتفع على الأرض ، وازاء بأبه بناء بقدر أرتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه ، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل . وداخل موضع لجلوس حارس المنار ، وداخل المنار بيوت كثيرة ، وعرض الممر بداخله تسعة أشبار ، وعرض الحائط عشرة أشبار ، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبراً ، وهو على تل مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد فى بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بصور البلد ، فلا يمكن التوصل إلى المنار فى البر إلا من المدينة . وفى هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية .

وقصدت المنار عند عودى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته قد أستولى عليه الخراب بحيث لايمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه . وكان الملك الناصر ، رحمه الله ، قد شرع فى بناء منار مثله بإزائه فعاقه الموت عن اتمامه .

وصف عمود السوارى :

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذى بخارجها المسمى عندهم بعمود السوارى ، وهو متوسط « فى غابة نخل ، وقد أمتاز عن شجراتها سمواً وإتفاعاً ، وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعَّة أمثال الدّكاكين العظيمة ، ولا تعرف كيفيّة وضعه هنالك ، ولا يتحقق من وضعه .

استطراد من ابن جزى :

قال ابن جُزَىّ : أخبرنى بعض أشياخى الرحَالين أن أحد الرمَّالة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ، ومعه قوسه وكنانته ، واستقر هنالك وشاع خبره ، فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه . وخفى على الناس وجه احتياله ، وأظنه كان خائفاً أو طالب حاجة فأنتج له فعله الوصول إلى قصده ، لغرابة ما أتى به .

وكيفية احتياله فى صعوده أنه رمى بنشابة قد عقد فوقها حيطاً طويلاً ، وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقاً ، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ، ووقعت من الجهة الموازية للرامى ، فصار الخيط معترضاً على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط ، فأوسطه من إحدى الجهتين فى الأرض ، وتعلق به صاعداً من الجهة

الأخرى ، واستقر بأعلاه وجذب الحبل ، واستصحب من احتمله ، فعلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه .

استئناف رواية ابن بطوطة :

وكان أمير الإسكندرية فى عهد وصولى إليها يسمى بصلاح الدين ، وكان فيها أيضاً فى ذلك العهد سلطان إفريقية المخلوع ، وهو زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبى حفص المعروف باللحيانى ، وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من الإسكندرية ، وأجرى له مائة درهم فى كل يوم . وكان معه أولاده عبد الواحد ومصرى وإسكندرى وحاجبه أبو زكرياء بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين . وبالإسكندرية توفى اللحيانى المذكور وولده الإسكندرى وبقى المصرى بها .

استطراد من ابن جزى :

قال ابن جزى : من الغريب ما اتفق من صدق الزجر فى أسمى ولدىّ اللحيانى الإسكندرى والمصرى فمات الإسكندرى بها وعاش المصرى دهراً طويلاً بها . وهى من بلاد مصر .

استئناف رواية ابن بطوط :

وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وإفريقية وتوفى هنالك بجزيرة جربة .

علماء الإسكندرية :

فمنهم قـاضيها عـماد الدين الكندى إمام من أئمة علم اللـسان وكان يعتم بعـمامة خرقت المعـتاد للعمـائم لم أر فى مشارق الأرض ومغـاربها عمامة أعظم منها ؛ رأيته يوماً قاعداً فى صـدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب ؛ ومنـهم فخر الدين بن الـريغى وهو أيضاً من القـضاة بالإسكندرية فاضل من أهل العلم .

قصة مشهورة في الإسكندرية :

يذكـر أن جـد القاضى فـخـر الدين الريغى كـان من أهل ريغـة واشـتغل بطلب العلم ثم رحل إلى الحجاز فـوصل الإسكندرية بالعشى ، وهو قليل ذات اليد ، فأحب أن لايدخلها حتى يسـمع فألاً حسناً ، فقعد قريباً من بابها إلى أن دخل جمـيع الناس ، وجاء وقت سد الباب ، ولم يبق هنالك سواه ، فـاغتاظ الموكل بالبـاب من إبطائه ، وقال متـهكماً : ادخل يا قاضى ! فقال : قاض إن شاء الله ! ودخل إلى بعض المدارس ، ولازم القراءة وسلك طريق الفـضلاء ، فعظم صيـته وشهر اسـمه وعرف بالزهد والورع ، واتصلت أخـباره بملك مـصر . واتفق أن توفى قـاضى الإسكندرية ، وبهـا إذ ذاك الجم الغفـير من الفقـهاء والعلمـاء ، وكلهم متشوف للولاية ، وهو من بينهم لا يتشوف لذلك ، فبعث إليه السلطان بالتقليد ، وهو ظهـير القضاء ، وأتاه البريد بذلك فـأمر خديمه أن ينادى

فى الناس : من كانت لــه خصومــة فليحضــر لها ، وقعــد للفصل بين الناس ، فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء يتعــداه وتفاوضوا فى مــراجعة السلطان فى أمــره ومخاطبــته بأن الناس لا يرتضــونه ، وحضر لذلــك أحد الحذاق من المــنجمين ، فقــال لهم : لا تفعلوا ذلك ، فــإنى عدلت طالع ولايته وحــققتــه ، فظهر لى أنه يحكم أربعين سنة ؛ فأضربوا عما هموا به من المراجعة فى شأنه .

وكان أمره على ما ظهر للمنجم وعرف فى ولايته بالعدل والنزاهة ؛ ومنهم وجيــه الدين الصنهاجى من قـضاتها مـشتهر بــالعلم والفصل ؛ ومنهم شــمس الدين بن بنــت التنيــسى فاضــل شهــيــر الذكــر ؛ ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفــاسى من كبار أولياء الله تعالى يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليــه إذا سلم من صلاته ؛ ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة صاحب المكاشفات .

بعض كرامات الأولياء فى الإسكندرية :

أخبرنى بعض الثــقات من أصحابه قال : رأى الشيخ خليــفة رسول الله ، ﷺ ، فى النوم فــقــال : يا خليــفــة زرنــا ! فــرحــل إلى المدينة الشريفة وأتى المســجد الكريم ، فدخل من باب السلام ،وحــيًا المسجد ، وسلَّم عــلــى رســول الله ، ﷺ ، وقــعــد مــســتنداً إلــى بعض ســوارى المســجد ، ووضع رأســه علــى ركــبتــيــه ، وذلك يسمَّى عنــد المتصــوِّفة

الترفيق . فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنيةً فيها لبن ، وطبقاً فيه تمر ، فأكل هو وأصحابه ، وانصرف عائداً إلى الإسكندرية ولم يحج تلك السنة ، ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج من كبار الزهّاد وأفراد العباد ، لقبته أيام مقامى بالإسكندرية وأقمتُ فى ضيافته ثلاثاً .

مقابلة فى الإسكندرية :

دخلتُ عليه يوماً فقال لى: أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد . فقلت له : نعم إنى أحب ذلك . ولم يكن حينئذ بخاطرى التوغّل فى البلاد القاصية من الهند والصين . فقال : لا بدّ لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند ، وأخى ركن الدين زكريّاء بالسند ، وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام . فعجبتُ من قوله وألقى فى روعى التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيتُ الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه .

ولما ودّعته زوّدنى دراهم لم تزل عندى محوطة ولم أحتاجْ بعد إلى إنفاقها إلى أن سلبها منى كفّار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر .

ومنهم الشيخ ياقوت الحبشى من أفراد الرجال وهو تلميذ أبى العباس المرسى وأبو العباس المرسى تلميذ ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى الشهير ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية .

أبو العباس المرسى وأبو الحسن الشاذلي :

أخبرنى الشيخ ياقوت عن شيخه أبى العباس المرسى أن أبا الحسن كان يحج فى كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج ، ويزور القبر الشريف ، ويعود على الدرب الكبير إلى بلده ، فلما كان فى بعض السنين ، وهى آخر سنة خرج فيها ، قال لخديمه : استصحب فأساً وقفّةً وحنوطاً ، وما يجهز به الميت فقال له الخديم : ولمَ ذا يا سيدى ؟ فقال له : فى حميثرا سوف ترى . وحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء عيذاب ، وبها عين ماء زعاق ، وهى كثيرة الضباع . فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله ، عز وجل ، فى آخر سجدة من صلاته ، ودفن هناك . وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلاً بالحسن بن على ، رضي الله عنه .

ما هو حزب البحر ؟

كان يسافر فى كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة ، فكان إذا ركب السفينة يقرؤه في كل يوم ، وتلامذته إلى الآن يقرؤونه فى كل يوم وهو هذا : يا الله يا على يا عظيم يا حليم ياعليم أنت ربى وعلمك حسبى ، فنعم الرب ربى ، ونعم الحسب حسبى ، تنصر من تشاء ، وأنت العزيز الرحيم . نسألك العصمة فى الحركات والسكنات

والأرادات والخطرات من الشكوك والـظنون والأوهام السـاترة للقلوب عن مطالعة الغيوب ، فقد ابتلى المؤمـنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ليقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ؛ فثبتنا وأنصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى ، عليه السلام ، وسخرت النار لإبراهيم عليـه السـلام ، وسخـرت الجبـال والحديد لداود ، عليـه السلام ، وسـخرت الريح والشيـاطين والجن لسليمان ، عليـه السلام ، وسخر لنا كل بحر هو لك فى الأرض والسماء والملك والملكوت ، وبحر الدنيـا ، وبحـر الآخـرة ؛ وسخـر لنا كل شىء يا من بيـده ملكوت كل شىء ، كهيعص ، حم ، عسق ، انصرنـا فإنك خير الناصرين ، وافتح لنا فإنك خير الفاتحين ، واغفر لنا فإنك خير الغافريسن ، وأرحمنا فإنك خير الـراحمين ، وأرزقنى فإنك خيـر الرازقين ، وأهدنا ونجنا من القوم الظالمين ، وهب لنا ريحاً طيـبة كما هى فى عـلمك ، وأنشرها علينا من خزائن رحـمتك ، وإحملنا بهـا حمل الكرامة مع السـلامة والعافـية فى الدنيـا والآخرة ؛ إنك علـى كل شىء قدير ، اللهم يـسر لنا أمـورنا مع الراحـة لقلوبنا وأبداننا ، والسـلام والعـافيـة فى ديننا ودنيـانا وكن لنا صـاحبـاً فى سفـرنا ، وخليـفة فى أهلنا ، وأطـمس على وجه أعـدائنا وأمسخـهم على مكانتهم ، فلا يستطيـعون المضى ولا المجىء إلينا ، ولو نشاء لطمسنـا على أعينهم فأستبـقوا الصراط فإنى يبـصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتـهم فما استطاعـوا مضياً ، ولا يرجـعون . يس إلى

فهم لا يبصرون ، شاهت الوجـوه ، وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً طس طسم حم عسق ، مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان حم حم حم حم حـم حم حم حم الأمر وجاء النصر ، فعلينا لا ينصرون ؛ حم تنزيل الكتـاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شـديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو إليـه المصير ، بسم الله بابنا تبارك حيطاننا ، يس سقفنا ، كهيعص كفايتنا ، حم عسق حمايتنا ، فسـيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم . ستر العـرش مسبول علينـا ، وعين الله ناظرة إلينا ، بحـــول الله لا يقـدر علـينا ، والله من ورائهم محيط ، بل هو قـرآن مجيد فى لوح محفوظ فـالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحـمين ؛ إن وليى الله الـذى نزل الكتـاب ، وهو يتـولى الصالحين ، فـإن تولوا فقل حـسبى الله لا إله إلا هو ، عليـه توكلت ، وهو رب العـرش العظيم ، بسم الله الذى لا يـضر مع أسـمـه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السمـيع العليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مشاجرة بين التجار فى الإسكندرية :

ومما جرى بمدينة الإسكنـدرية سنة سبع وعشـرين وسبعـمائه وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة ، وكان والى الإسكندرية رجلاً يعرف بالكركى ، فذهب إلى حماية الروم ،

وأمر المسلمين فحضـروا بين فصيلى باب المدينة ، وأغلق دونهم الأبواب نكالاً لهم ، فـأنكر الناس ذلك وأعظمـوه ، وكـسروا البـاب وثاروا إلى منزل الوالى فتحـصن منهم وقاتلهم من أعلاه ، وطير الحمـام بالخبر إلى الملك الناصر ، فبعث أميراً يعرف بالجمالى ثم أتبعه أميراً يعرف بطوغان جبار قاسى القلـب متهم فى دينه ، يقال أنه كان يعبـد الشمس ، فدخلا الإسكندرية وقبضـا على كبار أهلها ، وأعيان التجـار بها كأولاد الكويك وسواهم ، وأخـذا منهم الأموال الطائلـة ، وجعلت فى عنق عـماد الدين القاضى جامعة حديد . ثم أن الأمـيرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلاً وجعلا كل رجل قطعتين، وصلباهم صفين، وذلك فى يوم جمعة .

وخرج الـناس على عادتهم بعـد الصلاة لزيارة القـبور ، وشـاهدوا مصـارع القوم ، فعظمت حسـرتهم ، وتضاعفت أحـزانهم ، وكان فى جملة أولئك المصلوبـين تاجر كبيـر القدر يعرف بابن رواحـة ، وكان له قاعة معـدة للسلاح فمتى كان خوف أو قتال جـهز منها المائة والمائتين من الرجـال بما يكفيـهم من الأسلحة ، وبالمدينة قـاعات على هذه الـضرورة لكثير من أهلها ، فزل لسـانه وقال للأميرين : أنا أضمن هذه المدينة ، وكل ما يحـدث فيهـا أطالب به وأحوط على السلطان مـرتبات العسـاكر والرجال . فأنكر الأميران قوله ، وقالا : انما تريد الثورة على السلطان ، وقتلاه ، وإنما كـان قصده ، رحمه الله ، اظهار الـنصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه .

وكنت سمعت أيام اقامتى بالإسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبى عبد الله المرشدى ، وهو من كبار الأولياء المكاشفين ، أنه منقطع بمنية بنى مرشد له هنالك زاوية هو منفرد فيها لا خديم له ، ولا صاحب ، ويقصده الأمراء والوزراء وتأتيه الوفود من طوائف الناس فى كل يوم فيطعمهم الطعام ، وكل واحد منهم ينوى أن يأكل عنده طعاماً أو فاكهة أو حلوى ، فيأتى لكل واحد بما نواه ، وربما كان ذلك فى غير إبانه ، ويأتيه الفقهاء لطلب الخدمة فيولى ويعزل . وذلك كله من أمره مستفيض متواتر . وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه ؛ فخرجت من مدينة الإسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعنا الله به ووصلت قرية تروجه وهى على مسيرة نصف يوم من مدينة الإسكندرية ، قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة ، صحبت قاضيها صفى الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلا من أهلها يسمى بمبارك . وينعت بزين الدين ، ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب ، وأضافنى ناظرها زين الدين بن الواعظ ، وسألنى عن بلدى وعن مجباه فأخبرته أن مجباه نحو أثنى عشر ألفاً من دينار الذهب ، فعجب وقال لى : رأيت هذه القمرية ، فإن مجباها أثنان وسبعون ألف دينار ذهباً ، وأنما عظمت مجابى ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال .

الفصل الثالث
دمنهور وشمال الدلتا

ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور ، وهى مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذى عليه مدار أمرها ، وكان قاضيها فى ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية ، وتولى قضاء الإسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندى بسبب الواقعة التى قصصناها . وأخبرنى الثقة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم ، وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار ، على ولاية القضاء بالإسكندرية .

مدينة فوه :

ثم رحلنا إلى مدينة فَوا ، وهذه المدينة عجيّبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الأثيرة . بها قبر الشيخ الولى أبى النجاة الشيهر الاسم ، خبير تلك البلاد ، وزاوية الشيخ أبى عبد الله المرشدى الذى قصدته بمقربة من المدينة يفصل بينها خليج هنالك ؛ فلما وصلت

المدينة تعديتها ووصلت إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر ، وسلمت عليه ، ووجدت عنده الأمير سلف الدين يلملك وهو من الخاصكية ، والعامة تقول فيه الملك ، فيخطئون . ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية ، ولما دخلت على الشيخ ، رحمه الله ، قام إلى وعانقنى ، واحضر طعاماً فواكلنى ، وكانت عليه جبة صوف سوداء ، فلما حضر صلاة العصر قدمنى للصلاة أماماً وكذلك لكل ما حضرنى عنده حين أقامتى معه من الصلاة ، ولما أردت النوم قال لى : أصعد إلى سطح الزاوية فنم هنالك ، وذلك أو أن القيظ ، فقلت للأمير : بسم الله . فقال لى : وما منا إلا له مقام ملعوم . فصعدت السطح فوجدت به حصيراً ونطعاً وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحاً للشرب ، فنمت هنالك .

من كرامات الأولياء :

رأيت ليلتى تلك ، وأنا نائم بسطح الزاوية ، كأنى على جناح طائر عظيم يطير بى فى سمت القبلة ، يتيامن ثم يشرق ثم يذهب فى ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران فى ناحية الشرق ، وينزل فى أرض مظلمة خضراء ، ويتركنى بها ، فعجبت من هذه الرؤيا ، وقلت فى نفسى: أن كاشفنى الشيخ برؤياى فهو كما يحكى عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمنى أماماً لهذا ثم أتاه الأمير يلملك ، فوادعه وأنصرف ،

وودعه من كـان هناك من الزوار وأنصرفـوا أجمعـين من بعد أن زودهم كعيكات صغاراً .

ثـم سبحت سـبحة الضحى ودعانى وكـاشفـنى برؤيـاى فقصصـتها عليـه ، فقال : سـوف تحج وتزور النبى ، ﷺ ، وتجول فى بلاد الـيمن والعراق وبلاد الترك ، وتـبقى بها مدة طويلة ، وستلقـى بها أخى دلشاد الهندى ، ويخلصك من شـدة تقع فيـها . ثم زودنى كعـيكات ودراهم وودعته وأنصرفت . ومنذ فارقته لم ألق فى أسفارى إلا خيراً ، وظهرت على بركاته ، ثم لم ألق فيـمن لقيته مثله إلا الولى سيـدى محمداً المولہ بأرض الهند .

مدينة النحرارية :

ثم رحلنا إلى مـدينة النحـرارية ، وهى رحـبة الفناء حـديثـة البناء أسواقها حسنة الرؤية ، وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى ، وولده في خدمـة ملك الهند وسنذكره ، وقاضيـها صدر الدين سليـمان المالكى من كبـار المالكية ، سـفر عن الملك الـناصر إلى العـراق وولى قضـاء البلاد الغربية ، وله هيئة جميلة وصورة حسنة ؛ وخطيبها شرف الدين السخاوى من الصالحين .

مدينة أبيار :

ورحلت منهـا إلى مدينة أبيـار ، وهى قديمة البناء أرجـة الأرجاء ،

كثـيرة المسـاجد ذات حسن زائد ، وهــى بمقربة من النحراريــة ، ويفصل بينهمــا النيل ؛ وتصنع بأبيار ثياب حـسان تعلو قيـمتها بالشـام والعراق ومـصر وغـيرها . ومن الغـريب قرب النحـرارية منها ، والثـيـاب التى تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها . ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجى الشافعى ، وهو كريم الشمـائل كبير القدر ، حضرت عنده مــرة يوم الركـبـة . وهم يســمون ذلــك يوم أرتقاب هــلال رمضــان ، وعادتهم فـيه أن يجتــمع فقهــاء المدينة ووجوههـا بعد العصـر من اليوم التـاسع والعشـرين لشـعبـان بدار القاضى ، ويـقف على الباب نقـيب المتعممين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة ، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قـائلا : بسم الله سيدنا فلان الدين ، فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب فى موضع يليق به ، فـإذا تكاملـوا هنـالك ركـب القـاضـى وركـب مـن مــعه أجـمـعين ، وتبعهم جميع من بالمدينة مــن الرجال والنسـاء والصبيان ، وينتهون إلى موضـع مـرتفع خـارج المدينة ، وهو مرتقــب الهلال عندهم ، وقد فرش ذلك الموضع بالبسطِ والفـرش ، فينزل فيه القـاضى ومن معه فيـرتقبون الهــلال ، ثم يعـودون إلـى المدينة بـعــد صـلاة المغـرب ، وبين أيديهم الشـمع والمشاعل والفوانيس ، ويوقد أهل الحـوانيت بحوانيتهم الشمع . ويـصل الناس مع القـاضى إلى داره ثم ينصرفون ، هكذا فـعلهم فى كل سنة .

المحلة الكبرى :

ثم توجهت إلى مدينة المحلّة الكبيرة ، وهى جليلة المقدار ، حسنة الآثار ، كثير أهلها ، جامع بالمحاسن شملها ، واسمها بيِّن . ولهذه المدينة قاضى القضاة ووالى الولاة ، وكان قاضى قضاتها أيام وصولى إليها فى فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد ، وهو عز الدين بن الأشمرين ، فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبى القاسم بن بنون المالكى التونسى ، وشرف الدين الدميرى قاضى محلة منوف ، وأقمنا عنده يوماً ، وسمعت منه .

البرلس (بلطيم) :

وقد جرى ذكر الصالحين : أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلّس ونسترو ، وهى بلاد الصالحين ، وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات ، فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور . وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحرى والحوت المعروف بالبورى ، ومدينتهم تسمى ملطين[1] ، وهى على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو بمقربة منها ، نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوى من الصالحين ، وكانت تنيس بلداً عظيماً شهيراً ، وهى الآن خراب .

---

(١) أى بلطيم الحالية .

استطراد من ابن جزى :

قال ابن جزى : ينسب إلى تنيس الشاعـر المجيد أبو الفتح بن وكيع وهو القائل فى خليجها :

قمْ فاسـقني والخليجُ مضطربُ   والريحُ تثـنى ذوائبَ القـصبِ
كـأنَّهـا ، والريـاحُ تعطِفُهـا   نُصبُ قناً سـندسـيـةِ الـعـذَبِ
والجـوُ فـى حلّةٍ ممـسكـةٍ   قـد طرّزتهـا الـبـروقُ بالذهبِ

والبرلّس واقع على البـحر ، ومن غريب مـا أتفق به ما حكاه أبو عبـد الله الرازى عن أبيه : أن قـاضى البرلس ، وكـان رجلاً صـالحاً ، خرج ليلة إلى النيل ، فـبينما أسبغ الوضوء وصلـى ما شاء أن يصلى إذ سمع قائلاً يقول :

لولا رجالٌ لهم سـردٌ يصومونا   وآخـرون لـهم وِردٌ يقـومـونا
لزلزلت أرُضكم من تحتكم سَحَرا   لأنكمِ قـوم سـوءٍ لا تبـالونا

قال : فتجوزت فى صلاتى وادرت طرفى فما رأيت أحداً ولا سمعت حساً فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى .

الفصل الرابع

الوصول إلى دمياط

ثم سافـرت فى أرض رملة إلى مدينة دمـياط ، وهى مديـنة فسيـحة الأقطار ، مـتنـوعة الثـمار ، عجـيبـة الترتيب ، آخـذة من كـل حسن بنصيب ، والناس يضبطون أسمهـا بإعجام الذال ، وكذلك ضبطه الإمام أبو محمد عبد الله بن على الرشـاطى ، وكان شرف الدين الإمام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدميـاطى ، إمام المحدثين يضبطها بإهمال الدال ، ويتـبع ذلك بأن يقول خـلاف الرشاطى وغـيره ، وهو أعـرف بضبط اسم بلده .

ومدينة دمياط على شاطىء النيل ، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء ، وكثير من دورها بها دركات يـنزل فيها إلى النيل وشجر الموز بها كثيـر يحمل ثمرة إلى مصر فى المراكب ، وغنمهـا سائمة هملا بالليل والنهار ، ولهذا يقال فى دمـياط سورها خلوى ، وكلابها غنم ، وإذا دخلها أحـد لم يكن له سبـيل إلى الخروج عنهـا إلابطابع الوالى ، فمـن كـان من الناس مـعتبراً طبع له فى قطعـة كاغد يستظـهر به لحراس

بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه ، فيستظهر به . والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن ، وبها الألبان الجاموسية التى لا مثل لها فى عذوبة الطعم وطيب المذاق ، وبها الحوت البورى يحمل منها إلى الشام وبلاد الروم ومصر ؛ وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ بها مسجد وزاوية ، لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ، ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار ، قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكراً .

ودمياط هذه حديثة البناء ، والمدينة القديمة هى التى خربها الإفرنج على عهد الملك الصالح ،وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية ، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم . ويسكن الزاوية فى هذا العهد الشيخ فتح التكرورى .

لحية الشيخ جمال الدين الساوى :

يذكر أن السبب الداعى للشيخ جمال الدين الساوى إلى حلق لحيته وحاجبته إنه كان جميل الصورة ، حسن الوجه ، فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسلة وتعارضه فى الطرق ، وتدعوه لنفسها ، وهو يمتنع ويتهاون ، فلما أعياها امره دست له عجوزاً تصدت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد ، وبيدها كتاب مختوم ، فلما مر بها قالت له : يا سيدى اتحسن القراءة ؟ قال : نعم ! قالت له : هذا الكتاب وَجَّهَهُ إِلىّ

ولدى ، واحب أن تقرأه على . فقال لها : نعم ! فلما فتح الكتاب قالت له : يا سيدى ! إن لولدى زوجة ، وهى بأسطوان الدار ، فلو تفضلت بقراءته بين بابى الدار بحيث تسمعها . فأجابها لذلك ، فلما توسط بين البابين اغلقت العجوز الباب ، وأخرجت المرأة جواريها فتعلقن به ، وأدخلنه إلى داخل الدار ، وراودته المرأة عن نفسه . فلما رأى أن لا خلاص له قال لها : إنى حيث تريدين ، فأرينى بيت الخلاء ! فأرَته إياه ، فأدخل معه الماء ، وكانت عنده موسى جديدة فحلق لحيته وحاجبيه ، وخرج عليها فاستقبحت هيئته ، واستنكرَت فعلَه ، وأمرت بإخراجه ، وعصَمه الله بذلك فبقى على هيئته فيما بعد . وصار كل من يسلك طريقَته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه .

ويُذكرُ أنه لما قصَد مدينة دمياط لزم مقبرتها ، وكان بها قاضٍ يُعرف بابن العميد ، فخرج يوماً إلى جنازة بعض الأعيان ، فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة ، فقال له : أنت الشيخ المبتدع ؟

فقال له : وأنت القاضى الجاهل تمرّ بدابتك بين القبور وتعلم أن حرمة الإنسان ميتاً كحرمته حياً !

فقال له القاضى : وأعظم من ذلك حلقك للحيتك ، فقال له : إياى تعنى ؟

وزعق الشيخ ثم رفع رأسه ، فإذا هو ذو لحية سوداء عظيمة ، فعجب القاضى ومن معه ونزل إليه عن بغلتـه ، ثم زعق ثانياً ، فإذا هو ذو لحية بيضـاء حسنة ، ثم زعـق ثالثـاً ورفع رأسه فإذا هو بلا لحـية كـهيئـته الأولى . فقبل القاضى يده وتتلمذ له وبنى له زواية حسنة ، وصحبه أيام حياته ، ثم مـات الشيخ فدفن بزاويته . ولما حضـر القاضى وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشـيخ يطأ قبره . وبخارج دمياط المزار المعروف بشَطَا ، وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصـرية ، وله أيام فى السنة مـعلومـة لذلك . وبخـارجهـا أيضـاً بين بساتينها موضع يعرف بالمِنية فيـه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان ، قصدت زاويته ، وبت عنده .

وكان بدمياط أيام إقامتى بهـا وال يعرف بالمحسنى من ذوى الإحسان والفضل ، بنى مدرسة على شـاطىء النيل بها كان نزولى فى تلك الأيام وتأكدت بينى وبينه مودة .

ثم سافـرت إلى مدينة فارسكور ، وهى مـدينة على ساحل النيل ، ونزلـت بخارجـها ولحـقنى هنالك فارس وجههُ إلى الأمير المحـسنى فقال لـى : أن الأميـر سـأل عنـها ، وعـرف بسيـرتك ، فبعث إلـيك بهذه النفقة ، ودفع إلى جملة دراهم ، جزاه الله خيراً .

ثم سافرت إلى مـدينة أشمون الرمان ، ونسبـت إلى الرمان لكثرته

بها ومنها يحمل إلى مصر ، وهى مدينة عـتيقة كبيرة على خليج النيل ، قنطرة قنطره خشب ترسو المراكب عندها ، فإذا كـان العصر رفعت تلك الخشب ، وجازت المراكب صاعدة ومنحـدرة . وبهذه البلدة قاضى القضاة ووالى الولاه .

ثم سافـرت عنها إلى مـدينة سمنود وهى على شـاطئ النيل كثـيرة المراكب حسنة الأسواق ، وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ ، ومن هذه المدينة ركبـت النيل مصعـداً إلى مصر مـا بين مدائن وقـرى منتظمة متصل بعضها ببعض ، ولا يفـتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد لأنه مهـمـا أراد النزول بالشاطىء نـزل للوضـوء والصـلاة وشراء الزاد وغـير ذلك ، والأسواق متصلة من مدينة الإسـكندرية إلى مصر ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد .

الفصل الخامس

الوصول إلى مدينة مصر

(مصر العتيقة)

ثم وصلت إلى مدينة مصر ، هى أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية فى كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموجُ موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها ؛ شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم ، وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم . ولها خصوصية النيل الذى أجل خطرها واغناها عن أن يستمد القطر قطرها ، وارضها مسيرة شهر لمجد السير ، كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة .

استطراد لابن جزى :

قال ابن جُزَىّ : وفيها يقول الشاعر :

لعَمْرُكَ مَا مِصرٌ بمصـــرٍ ، وإنما هــى الجــنَّةُ الــدّنْيَا لِمَن يَتَبَصَّر

فأوْلادُهَا الوِلْدَانْ، والحورُ عينها وَرَوْضَتُها الفِرْدَوْسُ، وَالنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شَاطىء مِصرٍ جَنةٌ ، مَا مِثْلَهـــا من بَلَدِ

لاسِيما مُنذ زُخرِفَتْ بِنـيلِهـــا المُطـرِدِ

وَلِلـرّيَاحِ فَوقــــهُ سَوَابـــغٌ مِنْ زَرَدِ

مَسْرُودَةٌ مَا مَسَّهـــا دَاوُدُهَا بِمِبـــــرِدِ

سَائـلَةٌ ، هَوَاؤهـــا يرْعـدُ عَارِى الجَسَدِ

وَالفُلْكُ كـالأفـلاكِ بَينَ حَادِرٍ وَمُصـــعِدِ

ويقال لمن بمصر من السقائين على الجال اثنى عشر ألف سقاء، وإن بها ثلاثين ألف مكار، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان، والرعيـة تمر صاعـدة إلى الصعيـد ومنارة إلى الإسكندرية ودمـياط بأنواع الخيـرات والمرافق ، وعلى ضفـة النيل مما يواجـه مصر الموضـع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة .

استئناف رواية ابن بطوطة :

وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ، شاهدت بهامرة فرجة بسبب برء الملك الناصر منكسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحُليّ وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً .

وصف مسجد عمرو بن العاص :

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر ، تقام فيه الجمعة ،والطريق يعترضه من شرق إلى غرب ، وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعى .

وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ، وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أُعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، يذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم .

وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق ، واحدتها خانقة . والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ، وأكثرهم الأعاجم ،وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف . ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيب أمورهم عجيب .

ومن عوائدهم فى الطعام إنه يأتى خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً

فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه فى إناء على حدة ، لا يشاركه فيه أحد . وطعامهم مرتان فى اليوم . ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهماً للواحد فى الشهر إلى عشرين ، ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح . وهم اعزاب ، وللمتزوجين زوايا على حدة . ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية .

ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به ، وإذا صلوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزءاً ويختمون القرآن ، ويذكرون ، ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق . ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر .

ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتى باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجادة ، وبيمناه العكاز وبيسراه الإبريق ، فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه ، فيخرج إليه ، ويسأله من أى البلاد أتى وبأى الزوايا نزل فى طريقه ومن شيخه ، فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته فى موضع يليق به ، وأراه موضع الطهارة ، فيجدد الوضوء ، ويأتى إلى سجادته ، فيحل وسطه ، ويصلى ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم .

ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك ، ويخرجون مجتمعين ، ومعهم شيخهم ، فيأتون المسجد ويصلى كل واحد على سجادته ، فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

وصف قرافة مصر :

ولمصر القرافة العظيمة الشأن فى التبرك بها ، وقد جاء فى فضلها أثر أخرجه القرطبى وغيره لأنها من جمل الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة ، وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ، ويجعلون عليها الحيطان ، فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان . ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة ، ويخرجون فى كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ويطوفون على الأسواق بصنوف المآكل .

ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن على ، عليهم السلام ، وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبواب حلق الفضة وصفائحها أيضاً كذلك ، وهو موفى الحق من الإجلال والتعظيم ، ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنوار بن زيد بن على

بن الحسين بن على ، عليهم السلام ، وكانت مجابة الدعوة ، مجتهدة فى العبادة ، وهذه التربة انيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود .

ومنها تربة الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، رضي الله عنه ، وعليها رباط كبير ، ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهير البديعة الأتقان ، العجيبة البنيان ، المتناهية الأحكام ، المفرطة السمو ،وسعتها ازيد من ثلاثين ذراعاً .

وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر ، وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف ، رضى الله تعالى عنهم ، مثل : عبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبد العزيز ، وأصبغ بن الفرج ، وابنى عبد الحكم وأبى القاسم بن شعبان وأبى محمد عبد الوهاب ، لكن ليس لهم بها اشتهار ، ولا يعرفهم إلا من له بهم عناية . والشافعى ، رضي الله عنه ، ساعده الجد فى نفسه واتباعه وأصحابه فى حياته ومماتة ، فظهر من أمره مصداق قوله :

الجد يدفىء كل أمر شائع   والجد يفتح كل باب مغلق

وصف نيل مصر :

ونيل مصر يفضلها أنهار الأرض عذوبه مذاق ، واتساع قطر وعظيم منفعة ، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل وليس فى الأرض نهر يسمى بحراً

غيره . قال الله تعالى : فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، فسمَّاه يماً ، وهو البحر .

وفى الحديث الصحيح : إن رسول الله ، ﷺ ، وصل ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى ، فإذا في أصلها أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان ، فسأل عنها جبريل ، عليه السلام ، فقال : أما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات .

وفى الحديث أيضا : أن النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافاً لجميع الأنهار .

ومن عجائبه أن إبتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها ، وإبتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها . ونهر السند مثله فى ذلك وسيأتى ذكره .

وأول ابتداء زيادته فى حزيران وهو يوليه ، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً ثم خراج السلطان ، فإذا زاد ذراعاً كان الخصب فى العام والصلاح التام ، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع ، وأعقب الوباء ، وإن نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان ، وإن نقص ذراعين استسقى الناس ، وكان الضرر الشديد .

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهى : النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون ، وتماثلها أنهار خمسة أيضاً : نهر السند ويسمى ينج

اب ؛ ونهـر الهند ويسـمى الـكنك ، وإليـه تحج الهنود ، وإذا حـرقـوا أمواتهم ، رمـوا برمادهم فيـه ، ويقولون : هو من الجنة ؛ ونهـر الجون بالهند أيضاً ، ونهـر اتل بصحراء قـفجق ، وعلى ساحله مـدينة السرا ؛ ونهر السرو بأرض الخطا . وعلـى ضفته مدينة خـان بالق ، ومنها ينحدر إلى مديـنة الخنسا ثم إلى مـدينة الزيتون بأرض الصين ، وسنـذكر ذلك كله فى مواضعه إن شاء الله .

والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها إلا فـى السـفن شتـاء وصـيفـاً ، وأهـل كل بلدٍ لهم خلجان تخـرج من النيل ، فإذا مد اترعها ففاضت على المزارع .

وصف الأهرام :

وهى من العجائب المذكور على مر الدهور ، وللناس فـيها كلام كثير وخوض فى شأنها وأولية بنائها . ويزعمون أن جميع العلوم التى ظهـرت قبل الطوفـان أخذت عن هرمس الأول السـاكن بصعيـد مـصر الأعلى ، ويسمـى أخنوخ ، وهو إدريس ، عليه السـلام ، وأنه أول من تكلم فى الحركـات الفلكية والجواهر العلـوية ، وأول من بنى الهياكل ومـجد الله تعـالى فيـها ، وأنه أنذر النـاس بالطوفان ،وخـاف ذهاب العلم ودروس الصنائع ، فبنى الأهرام البـروابى وصور فيها جـميع الصنائع والآلات ، ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة .

ويقال أن دار العلم والملك بمصر مدينة منف ، وهى على بريد من الفسطاط ، فلما بنيت الإسكندرية انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والملك إلى أن أتى الإسلام ، فاختط عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، مدينة الفسطاط ، فهى قاعدة مصر إلى هذا العهد .

والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهى السمو ، مستدير ، متسع الأسفل ضيق الأعلى ، كالشكل المخروط ، ولا أبواب لها ، ولا تعلم كيفية بنائها .

ومما يذكر فى شأنها أن ملكاً من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته واوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربى من النيل لتكون مستودعاً للعلوم وجثة الملوك ، وأنه سأل المنجمين : هل يفتح منها موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالى ، وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ،ومبلغ الأنفاق فى فتحه ، فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبره أنه ينفق فى فتحه ، وأشتد فى البناء فأتمه فى ستين سنة ، وكتب عليها : بنينا هذه الأهرام فى ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك فى ستمائة سنة فإن الهدم أيسر من البناء .

فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها . فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لايفعل ، فلج فى ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى . فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التى بها اليوم ، ووجدوا بإزاء

النقب مالاً أمر أمير المؤمنين بوزنه ، فحصر ما أنفق فى النقب ، فوجدهما سواء ، فطال عجبه من ذلك ، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً .

السلطان قلاوون (الملك الناصر) :

وكان سلطان مصر على عهد دخولى إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدولة قلاوون الصالحى ، وكان قلاوون يعرف بالألفى لأن الملك الصالح اشتراه ، بألف دينار ذهباً ، وأصله من قفجق . وللملك الناصر رحمة الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة ، وكفاه شرفاً انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين . وما يفعله فى كل سنة من أفعال البر التى تعين الحجاج من الجمال التى تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى فى الدربين المصرى والشامى ، وبنى زاوية عظيمة بسرياقص خارج القاهرة .

لكن الزاوية التى بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله فى أرضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسنى له الفتح المبين ، ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء ، حرسها الله ، لا نظير لها فى المعمور فى أتقان الوضع وحسن البناء والنقش فى الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على

مثله . وسيأتى ذكر ما عمره ، أيده الله ، من المدارس والمارستان والزوايا ببلاده ، حرسها الله وحفظها بدوام ملكه .

الأمراء فى مصر :

منهم ساقى الملك الناصر ، وهو الأمير بكتمور ، وهو الذى قتله الملك الناصر بالسم ، وسيذكر ذلك .

ومنهم نائب الملك الناصر أرغون الدودار ، وهو الذى يلى بكتمور فى المنزلة .

ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر ، وكان فى خيار الأمراء ، وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن ، وله الإحسان العظيم للحرافيش ، وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة . وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد : يا اعرج النحس ، يعنون الملك الناصر ، أخرجه ، فأخرجه من محبسه . وسجنه مرة أخرى ، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه .

ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالى ، ومنهم بدر الدين بن البابه ؛ ومنهم جمال الدين نائب الكرك ؛ ومنهم تفرد مور ، ودمور التركية الحديد ؛ ومنهم بهادر الحجازى ؛ ومنهم قوصون ؛ ومنهم بشتك ؛ وكل هولاء يتنافسون فى أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا .

ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضى فخر الدين القبطى ، وكان نصرانيـاً من القبط ، فأسلم وحسن إسلامـه ، وله المكارم العظيمة والفضـائل التامـة ودرجتـه من أعلى الدرجات عند الملك النـاصر ، وله الصدقات الكثـيرة والإحسان الجزيل . ومن عـادته أن بجلس عشى النهار فى مجلس له بأسطوان داره على النيل ويليه المسجـد ، فإذا حضر المغرب صلى فى المسجد وعاد إلى مجلسـه وأُتى بالطعام ولا يمنع حينئذ أحداً من الدخول كائناً من كان ، فمن كان ذا حاجـة تكلم فيها فقضاها له ؛ ومن كان طالب صدقة أمر مملوكاً له يدعى بدر الدين ، وأسمه لؤلؤ ، يصحبه إلى خارج الدار وهنالك خازنة مـعه صور الدراهم ، فيعطيـه ما قدر له ، ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفـقهاء ويقرأ بين يديه كتاب الـبخارى فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه .

قضاة مصر :

فمنهم قاضى القضاة الشافعـية ، وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدراً ، وإليه ولاية القضاة بمصر وعـزلهم ، وهو القاضى الإمام العالم بدر الدين بن جماعة ، وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك ؛ ومنهم قاضى للقضاة المالكية الإمام الصالح تقى الدين الاخنائى ؛ ومنهم القـضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريرى ، وكان شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكانت الأمراء تخـافه ، ولقد ذكر لى أن الملك الناصـر قال يوماً

لجلسائه : إنى لا أخاف من أحـد إلا من شمس الدين الحريرى ؛ ومنهم قاضى القضاة الحنبلية ، ولا أعرفه الآن إلا أنه كان يدعى بعز الدين .

الملك والقضاة :

كان الملك الناصر ، رحمة الله ، يقعد للنظر فى المظالم ورفع قصص المتشكـين كل يوم اثنين وخميس ، ويـقعد القـضاة الأربعـة عن يساره ، وتقـرأ بين يديه ، ويعين من يسـأل صاحب القـصـة عنها . وقـد سلك مولانا أمـير المؤمنين ناصر الدين ، أيده الله ، فى ذلك مـسلكاً لم يسبق إليه ، ولا مزيد فى العدل والتواضع عليه ، وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقـيمة ، أبى الله أن يحضرها سواه ، أدام الله أيامه .

وكان رسـم القضـاة المذكورين أن يكون أعـلاهم منزلة فى الجلوس قاضى الشافـعية ثم قاضى الحنفـية ثم قاضى الملكية ثم قـاضى الحنبلية ، فلمـا توفى شـمس الدين الجـريرى وولى مكانه برهان الدين عـبـد الحق الحنفى أشار الأمـراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فـوقه . وذكروا أن العـادة جرت بذلك قديماً إذ كان قـاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يـلى قاضى الشافـعيـة تقى الدين بن دقيق العـيد ، فـأمر الملك الناصر بذلك ، فلما عـلم به قاضى الحنفية غاب عن شـهود المجلس أنفه من ذلك ، فـأنكر الملك الناصـر مغـيبـه ، وعـلم مـا قصـده ، فـأمـر

بإحضاره ، فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلي قاضى المالكية واستمر حاله على ذلك .

علماء مصر :

فمنهم شمس الدين الأصبهانى إمام الدنيا فى المعقولات ؛ ومنهم شرف الدين الزواوى المالكى ؛ ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلى نائب قاضى القضاة بجامع الصالح ؛ ومنهم ركن الدين بن القوبع التونسى من الأئمة فى المعقولات ؛ ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ؛ ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير ؛ ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطى ؛ وهو أعلمهم بالنحو ؛ ومنهم الشيخ الصّالح بدر الدين عبد الله المنوفى ؛ ومنهم برهان الدين الصفاقسى ، ومنهم قوام الدين الكرمانى ، وكان سكناه على سطح الجامع الأزهر ، وله جماعة من الفقهاء والقرّاء يلازمونه ويدرسون فنون العلم ، ويُفتى فى المذاهب ، ولباسه عباءة صوف خشنة ، وعمامة صوف سوداء . ومن عادته أن يذهب بعدَ صلاة العصر إلى مواضع الفُرَج والنزهات منفرداً عن أصحابه ، ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصّاحب تاج الدين بن حناء ، ومنهم شيخ شيوخ القرّاء بديار مصرَ مجد الدين الأقصرائى نسبة إلى أقصرا من بلاد الرّوم ، ومسكنه سرياقص ، ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائى ، والحويزا على مسيرة

ثلاثة أيام من البصرة ، ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسينى من كبار الصالحين ، ومنهم وكيل بيت المال المدرّس بقبة الإمام الشافعى مجد الدين بن جرمى ، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتى من كبار الفقهاء ، وله بمصر رياسة عظيمة وجاه .

يوم المحمل بمصر :

وهو يوم دوران الجحل ، يوم مشهور ، وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمجتسب ، وقد ذكرنا جميعهم ، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً باب القلعة ، دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجز فى تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاؤون عى جمالهم ، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل ، وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر ، والحداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى رجب ، فعند ذلك تهيج العزمات ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون فى التأهب لذلك والاستعداد .

الفصل السادس

الرحيل إلى الصعيد

ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف ، فبتّ ليلة خروجى فى الرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين ، وهو رباط عظيم ، بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه ، وهى قطعة من قصعة رسول الله ﷺ ، والميل الذى كان يكتحل به ، والدرفشُ ، وهو الإشفاء الذى كان يخصف به نَعله ، ومصحفُ أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب الذى بخطّ يده ، رضي الله عنه ؛ ويقال إن الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم ، وبنى الرباط وجعل فيه للوارد والصادر والجراية لخدّام تلك الآثار الشريفة ، نفعه الله تعالى بقصده المبارك .

ثم خرجتُ من الرباط المذكور ومررتُ بمنية القائد ، وهى بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سرتُ منها إلى مدينة بوش ، وهذه المدينة أكث بلاد مصر كتاناً ، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية ، وإلى أفريقية ، ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة دلاص ، وهذه المدينة كثيرة

الكتان أيضاً كمثل التى ذكرنا قبلها ويحمل أيضاً منها إلى ديار مصر وأفريقية ، ثم سافرت منها إلي مدينة ببا . ثم سافرت منها إلى مدينة البهنسا ، وهى مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة ، وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة .

وممن لقيتة بها قاضيها العالم شرف الدين ، وهو كريم النفس فاضل . ولقيتُ بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمى ونزلت عنده وأضافنى ، ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب ، وهى مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل ، وحَقّ حقيقٌ لها على بلاد الصَّعيد التفضيل ؛ وبها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد ، وكانت فى القديم منية عامل مصر الخصيب .

قصة خصيب :

يذكر أن أحد الخلفاء من بنى العباس ، رضى الله عنهم، غضب على أهل مصر فآلى أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأناً قصداً لإرذالهم والتنكيل بهم ، وكان خصيب أحقرهم إذ كان يتولى تسخين الحمَّام ، فخلع عليه وأمره على مصر . وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالإذاية حسبما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز . فلما استقر خصيب بمصر سار فى أهلها أحسن سيرة وتشهر بالكرم والإيثار ، فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ، ويعودون إلى بغداد شاكرين لما أولاهم .

وإن الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره أنه قصد خصيباً ، وذكر له ما أعطاه خصيب ، وكان عطاء جزيلا ، فغضب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب وإخراجه من مصر إلى بغداد ، وأن يُطرّح فى أسواقها . فلما ورد الأمر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخوله منزله . وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخبأها عنده وخاطها فى ثوب له ليلاً . وسُملت عيناه وطرح فى أسواق بغداد ، فمرّ به بعض الشعراء ، فقال له : يا خصيب ، إنى كنتُ قصدتك من بغداد إلى مصر مادحاً لك بقصيدة ، فوافقتُ انصرافك عنها ، وأحبّ أن تسمعها . فقال : كيف بسماعها وأنا على ما تراه ؟ فقال إنما قصدى سماعك لها ، وأما العطاء فقد أعطيتَ الناسَ وأجزلت جزاك الله خيراً . قال : فافعل . فأنشده .

أنتَ الخصيبُ وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحرُ

فلما أتى على آخرها قال له : افتق هذه الخياطة ، ففعل ذلك ، فقال له : خذ الياقوتة ، فأبى ، فأقسم عليه أن يأخذها ، فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين ، فلما عرضها عليهم قالوا له : إن هذه لا تصلح إلا للخليفة ، فرفعوا أمرها إلى الخليفة ، فأمر الخليفة باحضار الشاعر واستفهمه عن شأن الياقوته ، فأخبره بخبرها ، فتأسف على ما فعله بخصيب ، وأمر بمثوله بين يديه وأجزل له العطاء وحكمّه فيما يريد .

فرغبَ أن يعطيه هذه المنية ، ففعل ذلك وسكنها خصيب إلى أن توفى ، وأورثها عقبه إلى أن انقرضوا .

الأمر بلبس المئزر فى الحمام :

وكان قاضى هذه المنية أيام دخولى إليها فخر الدين النويرى المالكى ، وواليها شمس الدين ، أميرٌ خيِّرٌ كريمٌ ، دخلت يوماً الحمام بهذه البلدة ، فرأيت الناس بها لا يستترون ، فعظم ذلك علىّ وأتيته فأعلمته بذلك ، فأمرنى أن لا أبرح ، وأمر بإحضار المكترين للحمامات ، وكتبت عليهم العقود أنه متى دخل أحدٌ الحمام دون مئزر ، فأنهم يؤاخذون على ذلك ، واشتد عليهم أعظم الاشتداد . ثم انصرفت عنه .

ملوى :

وسافرت من منية ابن خصيب إلى مدينة منلوى[1] ، وهى صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل ، وقاضيها الفقيه شرف الدين الدَّميرى الشافعى ، وكبارها قومٌ يعرفون ببنى فضيل ، بنى أحدهم جامعاً أنفق فيه صميم ماله .

وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر ، ومن عوائدهم أنهم لا

---

(١) أى ملّوى الحالية .

يمنعون فقيراً من دخول معصرة منها فيأتى الفقير بالخبزة الحارّة فيطرحها . فــى القــدر التى يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكراً فينصرف بها .

وسافرت من منَلوى المذكورة إلى مــدينة منفلوط ، وهى مدينة حسن رواؤها ، مونّق بناؤها ، عى ضفة النيل ، شهيرة البركة .

مدينة منفلوط :

أخبرنــى أهل هذه المدينة أن الملك النّاصر ، رحمة الله ، أمــر بعمل منبر عظيم محكـم الصنعة ، بديع الإنــشاء ، برسم المسجد الحرام ، زاده الله شرفاً وتعظيــماً ، فلما تم عمله أمر أن يُصعـد به فى النيل ليجاز إلى بحــر جُدة ثم إلى مكة شــرّفها الله ، فلما وصل المــركب الـذى احتـمله إلــى منفلوط وحــاذى مـــسجدها الجــامع وقف وامــتنع من الجــرى مــع مســاعدة الريح ، فـعجب الناس من شأنه أشدّ العجب ، وأقــاموا أياماً لا ينهـض بهــم المركب ، فـكتــبوا بخبره إلى الملك الناصــر ، رحمة الله ، فأمـــر أن يُجمل ذلك المنبــر بجامع مــدينة منفلوط ، ففُعل ذلــك ، وقد عاينته بها .

ويصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا يباع بأسواق مصر .

مدينة أسيوط

وسافـرت من هذه المدينة إلى مـدينة أسيـوط ، وهى مدينـة رفيـعة أسواقها بديعـة ، وقاضيها شرف الدين بن عبـد الرحيم الملقب (بحاصل مـاثمَّ) لقب شهـر به ، وأصله أن القضـاة بديار مـصر والشـام بأيديهم الأوقاف والصـدقات لأبناء السبيل ، فـإذا أتى فقيرٌ لمدينة من المـدن قصد القاضـى بهـا فيـعطيه ما قُدّر له ، فكأن هذا الـقاضى إذا أتاه الفقير يقول له : حـاصل ما ثـمَّ أى لم يبقَ من المال الحـاصل شىء ، فلقب بذلك ولزمـه . وبها من المشـايخ الفضـلاء الصالح شـهاب الدين بن الـصبّاغ أضافنى بزاويته .

الآثار الفرعونية فى إخميم :

وسافرتُ منهـا إلى مدينة إخميم ، وهى مدينة عظيمـة أصيلة البنيان عجيبة الشأن بها البـربا المعروف باسمه ، وهو مبنى بالحجارة ، فى داخله نقوش وكتابة الأوائل لا تُفهم فى هذا العهد. وصُور الأفلاك والكواكب . ويزّعمـون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العـقرب وبها صور الحـيوانات وسواها ، وعند الناس فى هذه الصور أكاذيب لا يُعرَّج عليها .

وكان بـإخميـم رجل يُعرف بالخطيب أمـر بهدم بعض هذه البـرابى وابتنى بحجـارتها مدرسة ، وهو رجل مـوسر معروف باليـسار ، ويزعم حُسادُه أنه استفاد ما بيـده من المال من ملازمته لهذه البرابى ، ونزلتُ من

هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى العباس بن عبد الظاهر وبها تربة جده عبد الظاهر ، وله من الأخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ، ومن عادتهم أن يجتمعوا جميعاً بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضى المدينة الفقيه مخلص وسائر وجوه أهلها ، فيجتمعون للقرآن ، ويذكرون الله إلى صلاة العصر ، فإذا صلوها قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا .

وسافرتُ من إخميم إلى مدينة هُو ، مدينة كبيرة بساحل النيل ، نزلت منها بمدرسة تقى الدين بن السراج ، ورأيتهم يقرأون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزباً من القرآن ثم يقرأون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى وحزب البحر . وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسينى من كبار الصالحين .

من كرامات الأولياء :

دخلت إلى هذا الشريف متبركاً برؤيته والسلام عليه ، فسألنى عن قصدى ، فأخبرته أنى أريد حج البيت الحرام على طريق جُدة ، فقال لى : لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت ، فارجع ، وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامى ، فانصرفت عنه ، ولم أعمل على كلامه ، ومضيت فى طريق حتى وصلت إلى عيذاب ، فلم يتمكن لى السفر ، فعدت راجعاً إلى مصر ثم إلى الشام ، وكان طريقى فى أول حجّاتى على الدرب الشامى حسبما أخبرنى الشريف ، نفع الله به .

مدينة قنا :

ثم سافرت إلى مدينة قنا ، وهى صغيـرة حسنة الأسواق ، وبها قبر الشريف الصالح الولى صاحب البراهين العجيـبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوى ، رحمه الله عليه ، ورأيت بالمدرسة السيفية حفيده شهاب الدين أحمد .

مدينة قوص :

وسافـرت من هذا البلد إلى مدينة قُوص، مدينة عظـيمة لها خـيرات عمـيمة ، بسـاتينها مورقـة ، وأسواقهـا مونقة ، ولهـا المساجد الكثـيرة والمدارس الأثيـرة ، وهى منزل ولاة الصعـيد ، وبخـارجها زاوية الـشيخ شـهاد الدين بن عـبد الغـفار ، وزاوية الأفـرم ، وبها اجـتمـاع الفقـراء المتجـردين فى شهر رمضـان من كل سنة . ومن علمائها القاضـى جمال الدين بن السديد ، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العـيد أحد الفصحاء البلغـاء الذين حـصـل لهم السـبق فى ذلك لم أر من يماثـله إلا خطيب المسجـد الحرام بهـاء الدين الطبرى وخطيب مـدينة خوارزم حـسام الدين الشاطى ، وسـيقع ذكرهمـا ، ومنهم الفقيـه بهاء الدين بن عبـد العزيز المدرس بمدرسة المالكيـة ، ومنهم الفقيـه برهان الدين إبراهيم الأندلسى له زاوية عالية .

مدينة الاقصر :

ثم سافـرت إلى مدينة الأقصـر ، وهى صغيـرة حسنة ، وبها قـبر الصالح العابد أبى الحجاج الأقصـرى ، وعليه زاوية ، وسافرت منها إلى مـدينة أرمنت ، وهى صغـيرة ذات بسـاتين مبـنية على السـاحل النيل ، أضافنى قاضيها ، وأُنسيت اسمه

مدينة إسنا :

ثم سافـرت منها إلى مـدينة أسنا ، مدينة عظيـمة متـسعـة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمـدارس والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان قـاضيـها قـاضى القضـاة شهـاب الدين بن مسكين أضـافنى وأكرمنى ، وكـتب إلى نوابه بإكرامى ، وبها من الفضـلاء الشي الصالح نور الدين على والشـيخ الصـالح عبـد الواحـد المكناسى ، وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقُوص .

مدينة ادفو :

ثم سافرت منهـا إلى مدينة أدفُو وبينها وبين مدينة أسنا مـسيرة يوم وليلة فى صحراء ، ثم جزنا النيل مـن مدينة أدفو إلى مدينة العطوانى ، ومنها أكـترينا الجمال وسـافرنا مع طائفة من العرب تعـرف بدغيم ، فى صـحراء لا عـمارة بهـا إلا أنها آمنة السـبل . وفى بعض منازلهـا نزلنا

حميثرا حيث قبر ولى الله أبى الحسن الشاذلى ، وقد ذكرنا كرامته فى أخباره أنه يموت بها ، وأرضها كثيرة الضباع ، ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ، ولقد قصدت رحلى ضبع منها فمزقت عِدلاً كان به واجترت منه جراب تمر وذهبت به ، فوجدناه لما أصبحنا ممزقاً مأكولاً معظم ما كان فيه .

مدينة عيذاب وملك البجاة :

ثم لما سرنا خمسة عشر يوماً وصلنا إلى مدينة عيذاب ، وهى مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ، ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر ، وأهلها البجاة ، وهم سود الألوان يلتحفون ملاحف صفراً ، ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها إصبعاً ، وهم لا يورثون البنات ، وطعامهم ألبان الإبل ويركبون المهارى ويسمونها الصهب ، وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البجاة ، وهو يعرف بالحدربى. وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلانى، شهير البركة، رأيته وتبركت به؛ وبها الشيخ صالح موسى ، والشيخ المسن محمد المراكشى، زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش وأن سنة خمس وتسعون سنة .

ولما وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الأتراك ، وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه ، فتعذر سفرنا فى البحر ، فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد ، وعدنا مع العرب الذين اكترينا

الجمال منهم إلى صعيد مصر ، فوصلنا إلى مدينة قوص التى تقدم ذكرها وانحدرنا منها فى النيل وكان أوان مده فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر فبت بمصر ليلة واحدة . وقصدت بلاد الشام ، وذلك فى منتصف شعبان سنة ست وعشرين وسبعمائة فوصلت إلى مدينة بلبيس وهى مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم ألق بها من يجب ذكره .

مدينة الصالحية :

ثم وصلت إلى الصالحية ، ومنها دخلنا الرمال ، ونزلنا منازلها مثل السوادة والواردة والمطيلب والعريش والخروبة ، وبكل منزل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته .

ومن منازلها قطيا المشهورة ، والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث ، وبها تؤخذ الزكاة من التجار ، وتفتش أمتعتهم ، ويبحث عما لديهم أشد البحث ؛ وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ، ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب ، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا . ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين ، وطريقها فى ضمان العرب قد وكلوا بحفظه ، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ، ثم يأتى الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل ، فإن وجد به أثرا طالب العرب بأحضار

مؤثـره فيذهــبون فـى طلبـه ، فلا يفوتهم ، فـيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء .

وكان بها فــى عهد وصولى إليهــا عز الدين أستاذ الـدار أقمارى من خيار الأمراء أضافنى وأكرمنى وأباح الجواز لمن كان معى ، وبين يديه عبد الجليل المغــربى الوقاف ، وهو يعرف المغــاربة وبلادهم ، فيــسأل من ورد منهم من أى البــلاد هو لئلا يلبس عليــهم ، فإن المغــاربة لا يعتــرضون جوازهم على قطيا .

الفصل السابع

بـــــلاد الشـــام

ثم سرنا حـتى وصلنا إلى مدينة غـزة ، وهى أول بلاد الشام ممايلى مصر ، متسـعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسـواق ، بها المساجد العديدة والأسوار عليهـا ، وكان بها مسجد جـامع حسن ، والمسجد الذى تقام الآن به الجمـعة فيها بناء الأميـر المعظم الجاولى ، وهو أنيق البناء ، مـحكم الصنعة ، ومنبـره من الرخـام الأبيض . وقاضى غـزة بدر الدين السلخى الحورانى ، ومدرسها علم الدين بن سالم ، وبنو سالم كبراء هذه المدينة ، ومنهم شمس الدين قاضى القدس .

مدينة الخليل :

ثم سافـرت من غزة إلى مدينة الخليل ، صلى الله علىٰ نبـينا وعليه وسلم تسليماً، وهى مدينة صغيرة الساحة، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار ، حسنة المنظر ، عجـيبة المخبر ، فى بطن واد ، ومسـجدها أنيق الصنعة ، محكم العمل ، بديع الحسن ، سامى الارتفاع ، مبنى بالصخر المنحوت ،

فى أحد أركانه صخرة ، أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبراً ، ويقال : إن سليمان ، عليه السلام ، أمر الجن ببنائه وفى داخل المسجد الغار المكرم المقدس ، فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، صلوات الله على نبينا وعليهم ، ويقابلها قبور ثلاثة هى قبور أزواجهم ، وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درجة رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيق يفضى إلى ساحة مفروشة بالرخام ، فيها صور القبور الثلاثة ؛ ويقال : إنها محاذية لها ، وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك ، وهو الأن مسدود ، وقد نزلت بهذا الموضع مرات ، ومما ذكره أهل العلم دليلاً على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقلته من كتاب على بن جعفر الرّازى الذى سماه «المسفر للقلوب» عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب اسند فيه إلى أبى هريرة قال : قال رسول الله ، ﷺ : لما أسرى بى إلى بين المقدس مر بى جبريل على قبر إبراهيم فقال : انزل فصلّ ركعتين ، فإن هنا قبر أبيك إبراهيم ، ثم مر بى على بيت لحم وقال : أنزل فصلّ ركعتين ، فإن هنا ولد اخوك عيسى عليه السلام ، ثم أتى بى إلى الصخرة ، وذكر بقية الحديث . ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الإمام الخطيب برهان الدين الجعبرى أحد الصلحاء المرضيين والأئمة المشهورين ، سألته عن صحة كون قبر الخليل ، عليه السلام ، هنالك ، فقال لى كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام ،

وقبـور زوجاتهم ، ولا يطعن فى ذلك إلا أهل البـدع ، وهو نقل الخلف عن السلف ، لا يشك فيه .

ويذكر أن بعض الأئمـة دخل إلى هذا الغار ووقف عند قبـر سارة ، فدخل شيخ فقال له : أىّ هذه القبور هـو قبرُ إبراهيم ؟ فأشار له أن قبره المعروف ؛ ثم دخل شاب فساله كـذلك ، فأشار لُه إليه ؛ ثم دخل صبى فسأله أيضاً ، فأشار له إليه ، فقـال الفقيه : أشهد أن هذا قبرُ إبراهيم ، عليـه السلام ، لا شك ؛ ثم دخل إلى المسـجد فـصلىّ به . وارتحل من الغد .

وبداخل هذا المسجد أيضاً قبر يوسف ، عليه السلام ، وبشرقى حرَمِ الخليل تربة لوط ، عليـه السلام ، وهى على تل مـرتفع يشرف مـنه غور الشام ، وعلى قبره أبنية حسنة ، وهو فى بيت منها حسن البناء مبيض ، ولا ستورَ عليه .

بحيرة لوط :

وهنالك بحـيرة لوط ، وهى أجاج ، يقـال : إنها مـوضع ديار قوم لوط ؛ وبمقربة من تربة لوط مسجـد اليقين ، وهو على تل مرتفع له نورٌ واشراقٌ ليس لسـواه ، ولا يجاوره إلا دار واحدة ، يسكنها قـيِّمه ، وفى المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض فى حـجر صلد قد هُيِّىء فيه صورة محراب لا يسع إلا مـصلياً واحداً ، ويقال : أن إبراهيـم سجد فى ذلك

الموضع شكراً لله تعالى عند هلاك قوم لوط ، فتحرك موضع سجوده ، وساخ فى الأرض قليلاً.

وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن على ، عليها اسلام ؛ وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام فى أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع : بسم اللّه الرحمن الرحيم ، لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وعلى خلقه كتب الفناء ، وفى رسول الله أسوة ، هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين ، رضي الله عنها ؛ وفى اللوح الآخر منقوش : صنعه محمد بن أبى سهل النقاش بمصر ، وتحت ذلك هذه الأبيات :

أسكنتُ مَن كان فى الأحشاء مسكنُه
بالرّغم منى بين التُّرب والحجَرَ
يا قبرَ فاطمةِ بنتِ ابن فاطمة
بنتِ الأئمةِ بنت الأنجُم الزُّهرِ
يا قبرُ ما فيك من دينٍ ومن ورعٍ
ومن عفافٍ ومن صونٍ ومن خَفَرِ

مدينة القدس :

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس فزرت فى طريقى إليه تربة يونس ، عليه السلام ، وعليها بنيّة كبيرة ، ومسجد ، وزرت أيضاً بيت

لحم موضع ميلاد عيسى ، عليه السلام ، وبه أثر جذع النخلة ، وعليه عمارة كثيرة والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ، ويضيفون من نزل به .

ثم وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله ،ﷺ تسليماً ، ومعرجه إلى السماء ، والبلدة كبيرة منيفة بالصخر المنحوت ، وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب ، جزاه الله عن الإسلام خيراً ، لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها ، ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفاً من أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها ، ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء فى هذا العهد الأمير سيف الدين تنكيز أمير دمشق .

المسجد الأقصى :

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن ، يقال : إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه وأن طوله من شرق إلى غرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية ، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعاً ، وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث ، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً ، وهو الذى يدخل منه الإمام ، والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا المسجد الأقصى ، فهو مسقف فى النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة ، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة ، وفى المسجد مواضع سواه مسقفة .

قبة الصخرة :

وهى من أعجب المبانى واتقنها وأغـربها شكلاً ، قد توفر حظها من المحـاسن ، وأخذت من كل بديعـة بطرف ، وهى قـائمة على نشـز فى وسط المسجد ، يصعد إليها فى درج رخام ، ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخـام أيضاً محكم الصنعة ، وكـذلك داخلها ، وفى ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة مـا يعجز الواصف ، وأكثر ذلك مغشى بالذهب ، فهى تتلألأ نوراً وتلمع لمعان البرق ، يحار بصر متأملها فى محاسنها ، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها .

وفى وسط القبـة الصخـرة الكريمة التى جاء ذكـرها فى الآثار ، فإن النبى ، ﷺ ، عرج منها إلى السماء ، وهى صخـرة صماء ارتفاعها نحو قامة ، وتحتهـا مغارة فى مقدار بيت صغير ارتفاعهـا نحو قامة أيضاً ينزل إليها على درج ، وهنالـك شكل محراب ، وعلى الصخرة شـبأكان اثنان محكما العـمل يغلقان عليها ، أحدهمـا ، وهو الذى يلى الصخرة ، من حديد بديع الصـنعة ، والثانى من خـشب ، وفى القبـة درقة كبـيرة من حديد معلقة هنالك ، والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب ، رضي الله عنه .

بعض المشاهد المباركة فى القدس الشريف :

فمنهـا بعدوة الوادى المعروف بوادى جهنـم فى شرقى البلد على تل

مرتفع هنالك بنية يقال أنها مصعد عيسى ، عليه السلام ، إلى السماء ، ومنها أيضاً قبر رابعة البدوية منسوبة إلى البادية ، وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة .

وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى ، ويقولون : أن قبر مريم ، عليها السلام ، بها ، وهنالك أيضاً كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى ، وهى التى يكذبون عليها ، ويعتقدون أن قبر عيسى ، عليه السلام ، بها ، وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين ، وضروب من الإهانة يتحملها على رغم أنفه . وهنالك موضع مهد عيسى ، عليه السلام ، يتبرك به .

فضلاء القدس :

فمنهم قاضية العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى ، وهو من أهل غزة وكبرائها ، ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى ، ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى ، ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطى نزيل القدس ، ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين ، ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغى ، ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم ، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى ، صحبته ولبست منه خرقة التصوف .

ثم سافـرت من القدس الـشريف برسم زيارة ثغـر عسـقلان ، وهو خراب قد عاد رسوماً طامسة واطلالاً دارسه ، وقلّ بلد جمع من المحاسن ما جمـعته عسقـلان أتقانا وحسن وضع وأصالة مكان وجمـعاً بين مرافق البر والبحر . وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على ، عليه السلام ، قبل أن ينقل إلى الـقاهرة ، وهو مسجد عظيم سـامى العلو فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيد ، وكتب ذلك على بابه .

وفى قبلة هذا المزار مـسجد كبيـر يعرف بمسجد عـمر لم يبق منه الا حيطانه ، وفيه أسطاطين رخام لا مـثل لها فى الحسن ، وهى ما بين قائم وحصيد ، ومن جـملتها اسطوانة حمراء عجيـبة يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم ثم فقدوها ، فوجدت فى موضعها بعسقلان .

وفى القبلـة من هذا المسجد بئـر تعرف ببـئر إبراهيم عليـه السلام ، ينزل إليها فى درج متسعة ، ويدخل منها إلى بيوت ، وفى كل ناحية من جهاتها الأربع عين تخرج من أسـراب مطوية بالحجارة ، وماؤها عذب ، وليس بالغزير ، ويذكر الناس من فضائلها كثيراً .

وبظاهر عـسقـلان وادى النمل ، ويقـال : أنه المذكور فى الكتـاب العزيز . وبجبانة عسقلان من قبـور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرته أوقفنا عليهم قـيم المزار المذكور ، وله جراية يجريها له ملك مـصر مع ما يصل إليه من صدقات الزوّار .

مدينة الرملة :

ثم سافرت منها إلى مدينة الرملة ، وهى فلسطين ، مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ، حسنة الأسواق ، وبها الجامع الأبيض ، ويقال : أن فى قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين ، عليهم السلام ، وفيها من كبار الفقهاء مجدُ الدين النابلسى .

مدينة نابلس :

ثم خرجتُ منها إلى مدينة نابلس ، وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً ، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق ، وبها تصنع حلواء الخروب ، وتجلب إلى دمشق وغيرها ، وكيفية عملها : أن يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء ، ويجلب ذلك الربّ أيضاً إلى مصر والشام ؛ وبها البطيخ المنسوب إليها ، وهو طيب عجيب ؛ والمسجد الجامع فى نهاية من الإتقان والحسن ، وفى وسطه بركة ماء عذب .

عجلون :

ثم سافرت منها إلى مدينة عجلون ، وهى مدينة حسنة ، لها أسواق كثيرة ، وقلعة خطيرة ، ويشقها نهر ماؤه عذب .

الغور :

ثم سافرت منهـا بقصد اللاذقية فـمررت بالغور ، وهو واد بين تلال به قبرُ أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الأرض ، رضي الله عنه ، زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل ، وبتنا هنالك ليلة .

ثم وصلنا إلى القـصير وبه قـبر مـعاذ بن جبـل ، رضي الله عنه ، تبركت أيضاً بزيارته .

عكا :

ثم سافـرت على الساحل فـوصل إلى مدينة عكـة ، وهى خراب ، وكـانـت عكة قـاعدة بلاد الأفـرنج بالشـام ومـرسى سفنهـم ، وتشبـه قسطنطينية العظمى ؛ وبشـرقيها عين ماء تعرف بعين الـبقر ، يقال : إن الله تعالى أخرج منها البقـر لآدم ، عليه السلام ، وينزل إليها فى درجٍ ، وكان عليهـا مسجد بقـى منه مـحرابه . وبهذه المدينة قبـرُ صالح ، عليه السلام .

صور :

ثم سافـرت منها إلى مـدينة صور ، وهى خراب وبخـارجهـا قرية معمورة وأكـثر أهلها أرفاض ، ولقد نزلت بهـا مرة على بعض المياه أريد الوضوء ، فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل

وجهه ، ولم يتمضمض ولا استنشق ، ثم مسح بعض رأسه ، فأخذت عليه فى فعله ، فقال لى : إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس .

ومدينة صور هى التى يُضرب بها المثل فى الحصانة والمنعة لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ، ولها بابان أحدهما لبر ، والثانى للبحر ، ولبابها الذى يشرع للبر أربعة فصلات كلها فى ستائر محيطة بالباب ، وأما الباب الذى للبحر فهو بين برجين عظيمين .

وبناؤها ليس فى بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ، وعلى الجهة الرابعة سورٌ ، تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك . وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج إلاّ بعد حطها ، وكان عليها الحراس والأمناء ، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم .

وكان لعكَّة أيضاً ميناء مثلها ، ولكنها لم تكن تحمل إلا السفن الصغار .

صيدا :

ثم سافرت منها إلى مدينة صيدا ، وهى على ساحل البحر حسنةٌ كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر ، نزلت

عند قاضيها كمال الدين الأشمونى المصرى. وهو حسن الأخلاق كريم النفس .

طبرية :

ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية ، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها وعظم شأنها ، وبها الحمامات العجيبة ، لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء ، وماؤها شديدُ الحرارة ولها البحيرة الشبيرة طولها نحو ستة فراسخ : وعرضها أزيدُ من ثلاثة فراسخ .

وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء فيه قبر شعيب ، عليه السلام ، وبنته زوج موسى الكليم ، عليه السلام وقبر سليمان ، عليه السلام ، وقبر يهوذا وقبر روبيل ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم .

جب يوسف :

وقصدنا منها زيارة الجبّ الذى ألقى فيه يوسف ، عيه السلام ، وهو فى صحن مسجد صغير ، وعليه زاويةٌ ، والجبّ كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر . وأخبرنا قيّمةُ أن الماء ينبع منه أيضاً .

ثم سرنا إلى مدينة بيروت ، وهى صغيرة حسنة الأسواق ، وجامعها بديع الحسن ، ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد .

وقصدنا منها زيارة أبى يعقوب يوسف الذى يزعمون أنه من ملوك المغرب ، وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز ، وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ، ويقال : أن السلطان صلاح الدين وقفَ عليها الأوقاف ؛ وقيل السلطان نور الدين ، وكانوا من الصالحين ، ويذكر أنه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها .

قصة أبى يعقوب يوسف :

يحكى أنه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضاً شديداً ، وأقام مطروحاً بالأسواق ، فلما برىء من مرضه خرج إلى ظاهر دمشق ليلتمس بستاناً يكون حارساً له ، فأستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين ، وأقام فى حراسته ستة أشهر ، فلما كان فى أوان الفاكهة أتى السلطان إلى ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب أن يأتى برمان يأكل منه السلطان ، فأتاه برمان فوجده حامضاً فأمره أن يأتى بغيره ، ففعل ذلك ، فوجده أيضاً حامضاً ، فقال له الوكيل : أتكون فى حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ، ولا تعرف الحلو من الحامض ؟ فقال : إنما استأجرتنى على الحراسة لا على الأكل . فأتى الوكيل إلى الملك فأعلمه بذلك ، فبعث إليه الملك وكان قد رأى فى المنام أنه يجتمع مع أبى يعقوب وتحصل له منه فائدة ، فتفرس أنه هو ، فقال له : أنت أبو يعقوب ؟ قال نعم ! فقام إليه وعانقه وأجلسه إلى جانبه ثم احتمله إلى مجلسه ، فأضافه بضيافه من الحلال المكتسب بكد يمينه وأقام عنده أياماً .

ثم خرج من دمشق فـاراً بنفسه فى أوأن البرد الشـديد فأتى قرية من قراها ، وكان بها رجل من الضعفـاء ، فعرض عليه النزول عنده ، ففعل وصنع له مرقة وذبح دجاجة فأتاه بها وبخبز شعير ، فأكل من ذلك ودعا للرجل . وكان عنـده جملة أولاد منهم بنت قد آن بنـاء زوجها عليـها ، ومن عوائـدهم فى تلك البلاد أن البنت يجـهزها أبوها ، ويكون مـعظم الجهـاز أوانى النحاس وبه يتفـاخرون وبه يتبايـعون ، فقال أبو يعـقوب للرجل : هل عندك شىء من النحـاس ؟ قال : نعم ، قـد اشتـريت منه لتجـهيز هذه البنت . قال : ائتنى به ! فـأتاه به ، فقال له : استـعر من جيـرانك ما أمكنك منه ؛ فـفعل واحضـر ذلك بين يديه ، فأوقـد عليه النيران ، وأخرج صـرة كانت عنده فيها الإكسـير فطرح منه على النحاس فصار كله ذهباً ، وتركه فى بيت مقفل ، وكتب كتاباً إلى نور الدين ملك دمشـق يعلمه بذلك وينبـهه على بناء مـارستـان للمرضى من الغـرباء ، ويوقـف علـيـه الأوقـاف ، ويبنى الزوايا بالطـرق ، ويرضى أصحـاب النحاس ، ويعطى صاحب البيت كفايته .

وقال له فى آخر الكتاب : وإن كـان إبراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خـراسان ، فـأنا قـد خرجت عن ملك المغـرب وعن هذه الصنعـة والسلام .

وفر من حينه ، وذهب صاحب البيت بالكتاب إلى الملك نور الدين ، فوصل الملك إلي تلك القـرية ، واحتمل الذهب بعد أن أرضـى أصحاب

النحاس وصاحب البيت ، وطلب أبا يعقوب فلم يجدْ له أثراً ولا وقع له على خبر ، فعاد إلى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذى ليس فى المعمور مثله .

طرابلس :

ثم وصلت إلى مدينة طرابلس ، وهى إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام ، تخترقها الأنهار وتحفها البساتين والأشجار ، ويكتنفها البحر بمرافقه العميمة والبر بخيراته المقيمة . ولها الأسواق العجيبة ، والمسارح الخصيبة[1] ، والبحر على ميلين منها ، وهى حديثة البناء .

وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر ، وتملكها الروم زماناً ، فلما استرجعها الملك الظاهر خربت ، واتخذت هذه الحديثة . وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك ، وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الأمراء ، ومسكنه منه بالدار المعروفة بدار السعادة ، ومن عوائده أن يركب فى كل يوم اثنين وخميس ، ويركب معه الأمراء والعساكر ، ويخرج إلى ظاهر المدينة ، فإذا عاد إليها وقارب الوصول إلى منزله ، ترجل الأمراء ونزلوا عن دوابهم ، ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله ، وينصرفون . وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم ، وتوقد المشاعل .

(١) أى المراعى الخصبة .

وممن كـان بها مـن الأعلام كـاتب السـر بها الـدين بن غانم أحـد الفضـلاء الحسبـاء ، معروف بالسـخاء والكرم ، وأخوه حـسام الدين هو شيخ القدس الشـريف ، وقد ذكرناه ، وأخوهما عـلاء الدين كاتب السر بدمشق .

وممن كـان بها مـن الأعلام كـاتب السـر بها الـدين بن غانم أحـد الفضـلاء الحسبـاء ، معروف بالسـخاء والكرم ، وأخوه حـسام الدين هو شيخ القدس الشـريف ، وقد ذكرناه ، وأخوهما عـلاء الدين كاتب السر بدمشق .

ومنهم وكـيل بيت المال قـوام الدين بن مكين من أكـابر الرجـال ، ومنهم قاضى قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام .

وبهذه المدينة حمامات حسان منهـا : حمام القاضى القرمى ، وحمام سندمور . وكـان سندمور أمير هذه المدينة ؛ ويذكـر عنه أخبار كثـيرة فى الشـدة على أهل الجنايات منهـا : أن امرأة شكت إلـيه أن أحـد مماليكه الخواص تعدى عليـها فى لبن كانت تبيعه فـشربه ، ولم تكن لها بيِّنة ، فأمر به فوسّط[1] ، فخرج الـلبن أيام اماراته على عيذاب ؛ واتفق مـثلها للملك كبك سلطان تركستان .

ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الأكراد ، وهو بلد كثير الأشجار

(١) وسِّط : أى أنه قطع إلى نصفين .

والأنهار بأعلى تل ، وبه زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمى نسبة إلى بعض كبراء الأمراء ؛ ونزلت عند قاضيها ، ولا أحقق الآن اسمه .

مدينة حمص :

ثم سافرت إلى مدينة حمص ، وهى مدينة مليحة أرجاؤها مونقة ، وأشجارها مورقة ، وأنهارها متدفقة ، وأسواقها فسيحة الشوارع ، وجامعها متميز بالحسن الجامع ، وفى وسطه بركة ماء . وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم . وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله ، وعليه زاوية ومسجد ، وعلى القبر كسوة سوداء . وقاضى هذه المدينة جمال الدين الشريشى من أجمل الناس صورة وأحسنهم سيرة .

مدينة حماة :

ثم سافرت منها إلى مدينة حماة أحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ، ذات الحسن الرائق ، والجمال الفائق ، تحفها البساتين والجنات ، عليها النواعيركالأفلاك الدائرات ، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصى ، ولها ربض سمى بالمنصورية أعظم من المدينة فيه الأسواق الحافلة والحمامات الحسان . وبحماة الفواكه الكثيرة ، ومنها المشمش اللوزى ، إذا كسرت نواته وجدته فى داخلها لوزة حلوة .

استطراد من ابن جزى:

قال ابن جزى : وفى هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الأديب الرحال ، نور الدين أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العبسى العمارى الغرناطى نسبة لعمار بن ياسر ، رضي الله عنه :

حمى الله من شطّى حماة مناظراً

وقفتُ عليها السَّمعَ والفكر والطرفاَ

تغنَّى حَمامٌ أو تميل خمائلٌ

وتزهَى مبانى تمنعُ الواصفَ الوصْفا

يلوموننى أن أعصى الصّوْن والنُّهى

بها وأطيع الكأسَ واللّهو والقَصْفا

إذا كان فيها النهرُ عاصٍ فكيف لا

أحاكيه عصياناً وأشربُها صِرفَا

وأشدو لدى تلك النوّاعير شدوها

وأغلبُها رقصاً وأُشْبهها غَرْفا

تئنّ وتُذرى دَمْعها ، فكأنها

تَهيمُ بمرآها وتسألها العَطْفا

ولعبضهم فى نواعيرها ذاهباً مذهب التورية :

وناعورةٍ رقّت لِعظَمِ خطيئتى

وقد عاينتُ قصدى من المنزل القاصى

بكتْ رحمة لى ثم باحت بشجوها

وحسبك أن الخُشب تبكى على العاصى

ولبعض المتأخرين فيها أيضاً من التورية :

يا سادةً سكنوا حماة وحقِّكُمْ

ما حُلتُ عن تَقوى وعن إخلاصِ

والطّرْفُ بعدكم إذا ذُكر اللقّا

يُجرى المدامع طائعاً كالعاصى

استئناف رواية ابن بطوطة:

ثم سافرت إلى مدينة المعرة التى ينسب إليها الشاعر أبو العلاء المعرى وكثير سواه

استطراد من ابن جزى:

قال ابن جُزَىّ : وإنما سـميت بمعرة النعـمان لأن النعمان بن بشـير الأنصـارى صـاحب رسـول الله ، ﷺ ، توفِّىَ لَه ولدٌ أيام إمـارته على حـمص ، فدفنه بالمعـرة ، فعـرفت به ، وكـانت قبل ذلك تسـمى ذات القصور ؛ وقيل : إن النعمان جبل مطل عليها سميت به .

استئناف رواية ابن بطوطة مدينة المعرة:

والمعرة مدينة كبـيرة ، حسنة ، أكثر شجرها الـتين والفستق ، منها يحمل إلى مصر والشـام ؛ وبخارجها على فرسخ منها قـبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ولا زاوية عليه ، ولا خديم له وسبب ذلك أنه وقع فى بلاد صنف من الرافضة أرجاس يبغضون العشرة من الصحابة ، رضى الله عنهم ، ولعن مبغضهم ، ويبغضون كل من اسمه عمر ، وخصوصاً عمر ابن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، لما كان من فعله فى تعظيم على ، رضي الله عنه .

مدينة سرمين:

ثم سرنا منها إلى مـدينة سرمين ، وهى حسنة ، كثيـرة البساتين ، وأكثر شجرها الزيتون ، وبهـا يصنع الصابون الأجرى ويجلب إلى مصر والشام ، ويصنع بهـا أيضا الصابون المطيب لغسل الأيدى ، ويصـبغونه بالحمرة والصـفرة ، ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب إليـها . وأهلها

سبابون يبغضون العشرة ، ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة ، وينادى سماسرتهم بالأسواق على السلع ، فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا : تسعة وواحد .

وحضر بها بعض الأتراك يوماً فسمع سمساراً ينادى : تسعة وواحد ، فضربه بالدبوس على رأسه ، وقال قل : عشرة بالدبوس .

وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ، ولم يجعلوها عشرة قياماً بمذهبهم القبيح .

مدينة حلب :

ثم سرنا إلى مدينة حلب المدينة الكبرى والقاعدة العظمى .

قال أبو الحسين بن جبير فى وصفها : قدرها خطير ، وذكرها فى كل زمان يطير ؛ خطابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير ، فكم هاجت من كفاح ، وسلّ عليها من بيض الصفاح . لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع ، منحوتة الأجزاء ، موضوعة على نسبة أعتدال وأستواء ، وقد طاولت الأيام والأعوام ، ووسعت الخواص والعوام . ابن أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ فنى جميعهم ولم يبق إلا بناؤها ، فيا عجبا لبلاد تبقى ويذهب ملاكها ، ويهلكون ، ولا يقضى هلاكها ، وتخطب بعدهم ، فلا يتعذر إملاكها ، وترام فيتيسر بأهون شىء إدراكها .

هذه حلب كم أدخلت ملوكها فى خبر كان ، ونسخت صرف الزمان بالمكان أُنِّث اسمها ، فتحلت بحلية الغوان ، وأتت بالعذر فيمن دان ، وانجلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان . هيهات سيهرم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها ، بعد حين ، خرابها .

وقلعة حلب تسمى الشهباء ، وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء ، فلا تخاف الظمأ ، ويطيف بها سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء ، وسورها متدانى الأبراج ؛ وقد انتظمت بها العلالى العجيبة المفتحة الطيقان ، وكل برج منها مسكون ، والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد ، وبها مشهد يقصده بعض الناس ، يقال : أن الخليل ، عليه السلام ، كان يتعبد به .

وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التى على الفرات بين الشام والعراق . ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة أياماً ، ونكص عنها خائباً .

استطراد من ابن جزى :

قال ابن جزى : وفى هذه القلعة يقول الخالدى شاعر سيف الدولة :

وخرقاء قد قامت على من يرومها

بمرقبها العالى وجانبها الصعب

يجر عليها الجو جيب غمامة

ويلبسها عقداً بأنجمه الشهب

إذا ما سرى برق بدت من خلاله

كما لاحت العذراء من خلل السحب

فكم من جنود قد اماتت بغصه ،

وذى سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضا ، وهو من بديع النظم :

وقلعة عانق العنقاء سافلها ،

وجاز منطقة الجوزاء عاليها

لا تعرف القطر إذ كان الغمام لها

ارضاً توطأ قُطريه مواشيها

إذا الغمامة راحت غاض ساكنها

حياضها قبل أن تهمى عواليها

يعد من أنجم الأفلاك مرقبها

لو أنه كان يجرى دواهيها

وفيها يقول جمال الدين على بن أبى المنصور :

كـــادت لــبَوْن ســـمـــوها وعـلوها
تســـتــوقف الـفلك المحـــيط الدائرا

وردت قــواطنهــا المجـــرة منهـلاً ،
ورعت ســوابقــهـــا النجــوم زواهرا

ويظل صــرف الدهر منهــا خائفــاً ،
وجلاً ، فــيمــا يمسى لديها حــاضرا

سبب تسميتها بحلب :

ويقــال فى مــديــنة حلب حلب إبراهيم لأن الخــليل ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه ، كان يسكنها ، وكانت له الغنم الكثيرة يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من ألبانها ، فكانوا يجتمعون ويسألون: حلب إبراهيم ؟ فســميت بذلك وهى من أعز البلاد التى لا نظيــر لها فى حسن الــوضع وأتقان التــرتيب ، وأتساع الأســواق ، وانتظام بعضــها ببعض . وأســواقها مــسقفــة بالخشب ، فأهلهــا دائما فى ظل ممدود ، وقيسارتهــا لا تماثل حسناً وكبراً ، وهى تحيط بمسجــدها وكل سماط منها محاذ لباب بين أبواب المسجد ؛ ومسجدها الجامع من أجمل المساجد ، فى

صحنه بركـة ماء ويطيف به بلاط عظـيم الاتساع ، ومنبرها بـديع العمل مرصع بالعـاج والأبنوس ؛ وبقرب جامعـها مدرسة مناسبـة له فى حسن الوضع وأتقان الصنعة ، ينسب لأمراء بنى حمدان ؛ وبالبلد سواها ثلاث مدارس ، وبها مدرستان .

وأما خارج المدينة فهو بسيط افيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الأعناب منتظمة به ، والبساتين عـلى شاطئ نهرها ، وهو النهر الذى يمر بحماة ، ويسمى العاصى ، وقيل : إنه سمى بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو . والنفس تجد فى خـارج مدينة حلب انشراحاً وسروراً ونشاطاً لايكون فى سواها. وهى من المدن التى تصلح للخلافة .

استطراد من ابن جزى :

قال ابن جزى : أطنبت الشعـراء فى وصف محاسن حلب ، وذكر داخلها وخارجها ، وفيها يقول أبو عبادة البحترى :

يا برقُ أسـفـرْ عن قـويـقَ فطرتى

حلبٍ فـأعلى الـقـصـرِ من بطيـاسِ

عن منبتِ الوردِ المعـصـفـرِ صبـغـهُ

فى كل ضـاحـيـةٍ ومـجنى الآسِ

أرضٌ إذا استوحشتكم بتذكرٍ
حشدَتْ عليّ فأكثرتْ إيناسى

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبرى :

سقى حلبُ المزنِ مغنى حلبْ
فكم وصلتْ طرباً بالطرَبْ
وكمْ مستطابٍ من العيشِ لذّ
بها إذ بها العيشُ لم يُستطبْ
إذا نشرَ الزهرُ أعلافهُ
بها ومطارفهُ والعذبْ
غدا وحواشيهِ من فضةٍ
تروقٌ ، وأوساطه من ذهبْ

وقال فيها أبو العلاء المعرى :

حلبٌ للواردِ جنَّة عدْنٍ
وهى للغادرينَ نار سعيرِ
والعظيمُ العظيم يكبرُ فى عيـ
ـنيه منها قدْرُ الصغير الصغير

فقويقٌ في أنفسِ القومِ بحرٌ ، وحصاة منه مكانَ ثبيرِ

وقال فيها أبو الفتيان بن جبوس :

يا صاحبيّ إذا أعياكما سقمى ،

فلقيانى نسيم الريح من حلبِ

من البلادِ التى كان الصبا سكناً

فيها وكان الهوى العذرى من أربى

وقال فيها أبو الفتح كشاجم :

وما أمتعتْ جارها بلدةٌ

كما أمتعتْ حلبٌ جارها

بها قد تجمَّعَ ما تشتهى ،

فزُرْها فطوبى لِمنْ زارها

وقال فيها أبو الحسن عليّ بن موسى بن سعيد الغرناطيَ العنسى :

حاديا العيس كم تنيخُ المطايا

سُقْ فروحى من بعدهم فى سياق

حلبٌ إنها مقرٌّ غرامى

ومرامى وقبلةُ الأشواق

لا خلا جوشنٌ وبَطياسُ والعبدُ

من كلّ وابلٍ غيْداقِ

كم بها مرتعٌ لطرْفٍ وقلبٍ

فيه سقىُ المنى بكأسٍ دهاق

وتغنى طيورها لارتياحٍ

وتثنّى غصونها للعناقِ

وعلو الشهباء حيث استدارت

أنجمُ حولها كالنطاقٍ

استئناف رواية ابن بطوطة :

وبحلب ملكُ الأمراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر ، وهو من الفقهاء ، موصوف بالعدل ، لكنه بخيل .

والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الأربعة ، فمنهم : القاضى كمال

الدين ابن الزملكانى شافعى المذهب ، عالى الهمة ، كبير القدر ، كريم النفس ، حسن الأخلاق ، متفنن بالعلوم ، وكان الملك الناصر قد بعث إليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يُقض له ذلك ، وتوفى ببلبيسَ ، وهو متوجه إليها . ولما ولىّ قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها ، وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدِّث شمس الدين أبى عبد الله محمد بن نباتة القرشى الأموى الفارقى ، فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة أوّلها :

أسفتْ لفقدكَ جلق الفيحاء وتباشرتْ لقدومك الشهباءُ

وعلا دمشق وقد رحلتَ كآبة وعلا رُبى حلبٍ سناً وسناءُ

قد أشرقت دار سكنت فناءها حتى غدتْ ولنورها لألاء

يا سائراً ، سَقْىُ المكارم والعالى ممن يبخل عنده الكرماء

هذا كمال الدين لذ بجنابهِ تنعمْ فثمّ الفضلُ والنعماء

قاضى القضاة أجلُّ من أيامه تغنى بها الأيتامُ والفقراء

قاضٍ زكا أصلا وفرعاً فاعتلى شرُفتْ به الآباء والأبناء

مَنَّ الإلهُ على بنى حلب به ؛ لله وضعُ الفضل حيث يشاء

كشف المعمى فهمه وبيانه فكأنما ذاك الذكاء ذكاء

يا حاكم الحكّام قدرك سابقٌ عن أن تسرّك رتبةٌ شماء

إن المناصب دون همتك التى فى الفضل دون محلها الجوزاء

لكَ فى العلوم فضائلٌ مشهورة كالصبح شق له الظلام ضياء

ومناقبٌ شهدَ العدو بفضلها والفضل ما شهدت به الأعداء

وهى أزيد من خمسين بيتاً وأجازه عليها بكسوة ودراهم . وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت .

استطراد من ابن جزىّ :

قال ابن جُزَى : وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك ، وهو فى المقطعات أجود منه فى القصائد ، وإليه انتهت الرياسة فى الشعر على هذا العهد فى جميع بلاد المشرق ، وهو من ذرية الخطيب أبى يحيى عبد الرحيم بن نباته منشىء الخطب الشهيرة ، ومن بديع مقطعاته فى التوريه قوله :

علقتها غيداء حالية العلى ، تجنِى على عقل المحب وقلبه

بخلت بلؤلؤِ ثغرها عن لائمٍ فغدت مطوقةً بما بخلت بهِ

استئناف رواية ابن بطوطة :

ومن قضاة حلب قـاضى قضاة الحنفيـة الإمام المدرّس ناصر الدين بن العديم حسنُ الصورة والسيرة ، أصيل مدينة حلب .

تراه إذا مـا جـئـتـــه مـتـهللاً كـأنك تعطيه الذى أنت سـائله

ومنهم قـاضى قضـاة المالكية لا أذكـره ، كان من الموثقين بمـصر ، وأخــذ الخطة عن غيــر إستحقــاق ،ومنهم قاضى قضــاة الحنابلة لا أذكر اسمه ، وهو من أهل صالحية دمشق ، ونقيب الأشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء ، ومن فقهـائها شرف الدين بن العجمى ، وأقـاربه هم كبراء مدينة حلب .

ثم سافـرت منها إلى مـدينة تبزين ، وهى على طريق قـنسرين ، وهى حديثة اتخذها التـركمان ، وأسواقها حسان ، ومـساجدها فى نهاية من الأتقان ، وقاضيها بدر الدين العسقلانى . وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة ، ثم خربت ، ولم يبقَ إلا رسومها .

الوصول إلى أنطاكية :

ثم سافرت إلى مدينة أنطاكية ، وهــى مدينة عظيمة أصيلة ، وكان عليها سور محكم لا نظير له فى أسـوار بلاد الشام ، فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها . وأنطاكـية كثـيرة العمـارة ، ودورها حسنة البناء ،

كثيرة الأشجار والمياه ، وبخارجها نهر العاصى، وبها قبر حبيب النجار ، رضي الله عنه ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، شيخها الصالح المعمر محـمد بن على ، سنّه ينيف على المائة ، وهو ممتع بقـوته ، دخلت عليه مرةً فـى بستان له وقـد جمع حطبـاً ورفعـه على كاهله ليـأتى به منزله بالمدينة ، ورأيت ابنه قد أنافَ على الثمـانين ، إلا أنه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض . ومن يراهما يظن الوالد منهما ولداً والولد والداً .

ثم سافـرت إلى حضن بغراس ، وهو حـصن منيع لا يرام ، عليه البساتين والمزارع ، ومنه يدخل إلى بلاد سِيس، وهى بلاد كفار الأرمن ، وهم رعيـةٌ للملك الناصر ، يؤدون إليـه مالاً ودراهمهـم فضةٌ خـالصة تعرف بالبغليـة ، وبها تصنع الثياب الدبيزية . وأميـر هذا الحصن صارم الدين بن الشيبـاتى ، وله ولدٌ فاصل اسمه عـلاء الدين ، وابن أخٍ اسمه حـسام الدين ، فـاضل كريم يسكن المـوضع المعروف بالرُّصص ويحـفظ الطريق إلى بلاد الأرمن .

مؤامرة الأرمن :

شكا الأرمنُ مرةً إلى الملك الناصر من الأمـيرِ حسام الدين ، وزوّروا عليه أموراً لاتليق ، فنفذ أمرُه لأمير الأمراء بحلب أن يخنقه . فلما توجه الأميـر بلغ ذلك صديقاً له من كـبار الأمراء ، فـدخل على الملك الناصر وقـال : يا خَوندان ! الأميرُ حسـام الدين هو من خـيار الأمـراء ينصح

للمسلمين ، ويحفظ الطريق ، وهو من الشجعان ، والأرمن يريدون الفساد فى بلاد المسلمين ، فيمنعهم ويقبرهم ، وإنما أرادوا إضعاف شوكة المسلمين بقتله . ولم يزل به حتى أنفذ أمراً ثانياً بسراحة ، والخلْع عليه ، وردّه لموضعه ، ودعا الملك الناصر بريدياً يُعرف بالأفوش ،- وكان لايبعث إلا فى مُهِمّ ، أمَرَه بالإسراع والجد فى السير ، فسار من مصرَ إلى حلب فى خمسٍ ، وهى مسيرَة شهر ، فوجد أمير حلب قد أحضرَ حسام الدين وأخرجه إلى الموضع الذى يخنق به الناس ، فخلّصه الله تعالى ، وعاد إلى موضعه .

ولقيت هذه الأمير ومعه قاضى بُغراس شرف الدين الحموى بموضع يُقال له العُمق متوسطُ بين أنطاكية وتيزين وبُغراس ، ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته .

حصن القصير :

ثم سافرت إلى حصن القُصَير ، تصغير قصر ، وهو حصن حسنٌ ، أميره علاء الدين الكردى ، وقاضيه شهاب الدين الأرمنى من أهل الديار المصرية .

ثم سافرت إلى حصن الشُّغْر بكاس ، وهو منيع فى رأس شاهق ، أميره سيف الدين الطنطاش ، فاضل ، وقاضيه جمال الدين بن شجرة من أصحاب ابن تَيْميَّة .

مدينة صهيون :

ثم سافرت إلى مدينة صهيون ، وهى مدينة حسنة بها الأنهار المطردة والأشجار المورقة ، ولها قلعة جيِّدة ، وأميرها يُعرف بالإبراهيمى ، وقاضيها محيى الدين الحمصى ، وبخارجها زاوية فى وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر ، وهى على قبر الصالح العابد عيسى البدوى ، رحمه الله . وقد زرتُ قبره .

وصف الحصون :

ثم سافرت منها فمررت بحصن القَدْموس ، ثم بحصن المَيْنَقَة ، ثم بحصن العلّيْقَة ، واسمه على لفظ واحدة العلّيق ، ثم بحصن مصياف ، ثم بحصن الكهف ، وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الإسماعيلية ، ويقال لهم الفداويَّة ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر بهم يُصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها ، ولهم المرتّبات ، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدوّ له أعطاه ديتَهَ ، فإن سلَم بعد تأتّى ما يُراد منه ، فهى له ، وإن أصيب ، فهى لولده . ولهم سكاكين مسمومةٌ يضربون بها من بعثوا إلى قتله ، وربما لم تصلح حيلهم ، فقتلوا كما جرى لهم مع الأمير قراسُنقور ، فإنه لمَّا هرَب إلى العراق بعث إليه الملك الناصر جملةً منهم فقُتلوا ولم يَقدروا عليه لأخذه بالحزم .

قصة :

كان قراسُنقور من كبار الأمـراء ومّمن حضر قتل الملك الأشرف أخى الملك الناصر ، وشارك فيه ، ولما تَمَهد المُلك للملك الناصر وقرّ به القرار واشتدت أواخى سلطانه جعل يتتبع قتلة أخيه فيقتلهم وأحداً واحداً إظهاراً للأخذ بثأر أخيه ، وخوفاً من أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه . وكان قـراسُنقور أمـير الأمراء بحلب ، فـكتب الملك الناصر إلى جـميع الأمراء أن ينفروا بعـساكرهم ، وجعل لهم مـيعاداً يكون فيه اجـتماعُهم بحلـب ونزولهم عليـها حـتى يقـبضـوا عليه ، فلمـا فعلوا ذلك خـاف قراسُنقِـور على نفسه ، وكان له ثمـانمائة مملوك فركبَ فيـهم وخرج على العساكر صباحاً ، فاخترقـهم وأعجزهم سبقاً . وكانوا فى عشرين ألفاً ، وقصـد منزل أميـر العرب مُهَنَّا بن عيـسى ، وهو على مسـيرة يومين من حلب ، وكان مُهنا فى قنص له ، فـقصد بيته ونـزل عن فرَسه ، وألقى العـمامة فى عُنـق نفسه ، ونـادى : الجوار يا أمـير العرب ! وكـانت هنالك أُم الفضل زوج منها وبنت عمه ، فـقالت له : قد أجرناك وأجرنا مـن معـك ، فقال : إنما أطلب أولادى ومـالى . فقـالت له : لك ما تحب ، فأنزل فى جوارنا ، ففعل ذلك وأتىْ مهنا فأحسن نزْله وحكمه فى ماله ، فـقال : إنما أُحب أهلى ومـالى الذى تركتـه بحلب . فدعـا مهنا بإخوته وبنى عمه ، فشاورهم فى أمره ، فمنهم من أجابه إلى ما أراد ؛ ومنهم من قال : كيف نحـارب الملكِ الناصر ، ونحن فى بلاده بالشام؟

فقال لهم مهنا : أما أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريده وأذهب معه إلى سلطان العراق .

وفى أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسُنقور سُيِّروا على البريد إلى مصر ، فقال مهنا لقراسنقور : أما أولادك فلا حيلة فيهم وأما مالك فنجتهد فى خلاصه . فركب فيمن أطاعه من أهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا وقصدوا حلب فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله ، ولم يتعدوا إلى سوى ذلك ، وقصدوا ملك العراق ، وصحبهم أمير حمص الأفرم ووصلوا إلى الملك محمد خُدابَنْده سلطان العراق ، وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ ، وهو ما بين السلطانية وتبريز ، فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب ، وأعطى قراسنقور مدينة مراغة على عراق العجم ، وتسمى دمشق الصغيرة ، وأعطى الأفرم همْدان ، وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم ، وعاد مهنا إلى الملك الناصر بعد مواثيق وعهودٍ أخذها منه ، وبقى قراسنقور على حاله .

وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرةً بعد مرة ، فمنهم من يدخل عليه داره فيُقتل دونه ؛ ومنهم من يرمى بنفسه عليه وهو راكب فيضربه ، وقتِل بسببه من الفداوية جماعة ، وكان لا يفارق الدرع أبداً ، ولا ينام إلا فى بيت العود والحديد ، فلما مات السلطان محمد وولى ابنه أبو سعيد وقع ما سنذكره من أمر الجوبان كبير أمرائه وفرار ولده

الدمرطاش إلى الملك الناصر ، ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبى سعيد واتفقا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قراسنقور ، ويبعث إليه الملك الناصر برأس الدمرطاش ، فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش إلى أبى سعيد ، فلما وصله أمر بحمل قراسنقور إليه ، فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتماً كان له مجوفاً فى داخله سمٌ ناقع فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه ، فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ، ولم يبعث له برأسه .

مدينة جبلة :

ثم سافرت من حصون الفداوية إلى مدينة جَبْلة ، وهى ذات أنهار مطردة وأشجار البحر على نحو ميل منها ، وبها قبر الولى الصالح الشهير إبراهيم بن أدهم ، رضي الله عنه ، وهو الذى نبذَ الملك وانقطع إلى الله تعالى حسبما شُهِرَ ذلك ، ولم يكن إبراهيم من بيت ملك ، كما يظنه الناس ، إنما ورث الملك عن جده أبى أُمه ، وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين .

قصة أدهم الزاهد :

يذكر أنه مرَّ ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الأنهار التى تتخللها ، فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر ، فقال : هذه لا خطر

لها ، فأكلها ثم وقع فى خاطره من ذلك وسواس ، فعزم على أن يستحل من صاحب البستان ، فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية فقال لها : أدعى لى صاحب المنزل ، فقالت : إنه لامرأة ، فقال : استأذنى لى عليها ، ففعلت ، فأخبر المرأة بخبر التفاحة ، فقالت له : إن هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان ؛ والسلطان يومئذ ببلخ ، وهى مسيرة عشرة من بخارى ، وأحلته المرأة من نصفها ، وذهب إلى بلخ ، فاعترض السلطان فى موكبه ، فأخبره الخبر واستحله فأمره أن يعود إليه من الغد .

وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت وحببت فى الزهد وحب الصالحين ، وهى تحب أن تتزوج من ورع زاهد فى الدنيا ، فلما عاد السلطان إلى منزله أخبر بنته بخبر أدهم ، وقال ما رأيت أورع من هذا الذى جاء إلى بلخ لأجل نصف تفاحة ؛ فرغبت فى تزوجه ، ثم إن السلطان قال : لا أحلك إلا أن تتزوج بنتى ، فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع ، فتزوج منها ، فلما دخل عليها وجدها متزنية ، والبيت مُزَيّن بالفرش وسواها ، فعمد إلى ناحية من البيت ، وأقبل على صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال .

وكان السلطان ما أحله قبل ، فبعث إليه أن يحله فقال : لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك ، فلما كان الليل واقعها ، ثم اغتسل

وقام إلى الصلاة ، فصاح صيحة وسجد فى مصلاه فوُجد ميتاً ، رحمه الله ، وحملت منه فولدت إبراهيم ، ولم يكن لجدّه ولدٌ فأسند الملك إليه .

وكان من تخليه عن المُلك ما اشتهر . وعلى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء ، وبها الطعام للصادر والوارد ، وخادمها إبراهيم الجمحى من كبار الصالحين ، والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ، ويقيمون بها ثلاثاً . ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شىء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق لحضور هذا الموسم ، وكل من يأتى من الزوار لهذه التربة يعطى لخادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة .

وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن على بن أبى طالب إله ،وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون . وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقُراهم ، فبنوا بكل قرية مسجداً بعيداً عن العمارة ولايدخلونه ولايعمرونه ، وربما أوتْ إليه مواشيهم ودوابهم ، وإذا وصل الغريب اليهم ، فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له : لا تنهق علفُك يأتيك ؛ وعددهم كثير .

مدينة اللاذقية :

ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية ، وهى مدينة عتيقة على ساحل البحر

يزعمون أنهـا مدينة الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غـصباً ، وكنت إنما قصـدتها لزيارة الولى الصـالح عبد المحـسن الإسكندرى ، فلما وصلتـها وجدته غائباً بالحـجاز الشريف ، فلقيت من أصحابه الـشيخين الصالحين سعيداً البـجائى ويحيى السلاوى ، وهما بمسجـد علاء الدين بن البهاء ، أحد فضلاء الشام وكبرائها ، صـاحب الصدقات والمكارم ، وكان قد عمر لها زاوية بقـرب المسجد وجـعل بها الطعام للوارد والصـادر ؛ وقاضيـها الفقيـه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصـرى المالكى فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الأمراء فولاه قضاءها .

قصة من اللاذقية :

كان باللاذقـية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لايسلم أحـد من لسانه متهم فى دينه مستخف ، يتكلم بالقـبائح من الإلحاد ، فعرضت له حاجة عند طيلان ملكَ الأمراء ، فلم يقضها له ، فقصد مصر وتقوّل عليه أموراً شنيعة ، وعاد إلى اللاذقيـة ، فكتب طيلان إلى القاضى جلال الدين أن يتـحيل فى قـتله بوجه شـرعى ، فـدعاه القـاضى إلى منزله وباحثـه ، واستـخرج كامن الحـاده فتكلم بعظائم أيسـرها يوجب القتل ، وقـد أعد القـاضـى الشهـود خلف الحجـاب ، فكتـبوا عـقداً بمقـاله ، وثبت عند القاضى ، وسـجن وأعلم ملك الأمراء بقضـيته ، ثم أخـرج من السجن وخنق على بابه .

ثم لم يلبث ملك الأمراء طيلان أن عـزل عن طرابلس ووليها الحاج قرطيـة ، من كبار الأمـراء ، وممن تقدمت له فـيها الولاية وبـينه طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه إخوة ابن المؤيد شاكين القاضى جلال الدين ، فأمر به وبالشهود الذين شـهدوا على ابن المؤيد فأحضروا ، وأمر بخنقـهم ، أخرجـوا إلى ظاهر المدينة حـيث يخنق الناس ، وأُجلس كل واحد منهم تحت مختنقه ، ونزعت عمائمهم .

ومـن عـادة أمراء تلك البـلاد أنه متى أُمـر أحدهم بقـتل أحـد من الناس يمر الحاكـم من مـجلس الأمير سبـقاً على فرسه إلى حـيث المأمور بقتله ، ثـم يعـود إلى الأمير ، فـيكرر استئذانـه ، يفعل ذلك ثـلاثاً ، فـإذا كـان بعـد الثلاث أنفـذ الأمـر ، فلما فـعـل الحاكم ذلك قـامت الأمـراء الثـلاثة وكشفـوا رؤوسهم ، وقالوا : أيهـا الأميـر هذه سُبة فى الإسـلام ! يقـتل القاضى والشهـود ؛ فقـبل الأمير شـفاعتـهم وخـلى سبيلهم .

وبخـارج اللاذقيـة الدير المعروف بدير الفـاروص ، وهو أعظم دير بالشـام ومصـر ، يسكنه الرهبان ، ويقصده النصـارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين فـالنصارى يضـيفونه ، وطعـامهم الخبز والجبن والزيتـون والخل البكر . وميناء هذه المديـنة عليهـا سلسلة بين برجين لا يدخـلهـا أحد ولا يخرج منهـا حتى تحط له السلسلة ، وهـى من أحسن المراسى بالشام .

ثم سافـرت إلى حصن المرقب ، وهو من الحـصون العظيـمة يماثل حصن الكرك ، ومبناه على جبل شامخ ، وخارجه ربض ينزله الغرباء ، ولا يدخلون قلعتـه ، وافتتـحه من أيدى الروم الملك المنصـور قلاوون ، وعليه ولد ابنـه الملك الناصر ، وكان قـاضيه برهـان الدين المصرى من أفاضل القضاة وكرمائهم .

ثم سافرت إلى الجبل الأقـرع ، وهو أعلى جبل بالشام ، وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان ، وفيه العيون والأنهار .

الفصل الثامن

جبل لبنان ودمشق

وسافرت منه إلى جبل لبنان ، وهو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ، ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين ، وهو شهير بذلك . ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

قصة :

أخبرنى بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال ، كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد ، فأوقدنا ناراً عظيمة ، وأحدقنا بها . فقال بعض الحاضرين : يصلح لهذه النار ما يشوى فيها ، فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الأعين ولا يعبأ به : إنى كنت عند صلاة العصر بمتعبد إبراهيم بن أدهم ، فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب ، وأظنه لا يقدر على الحراك ، فلو ذهبتم إليه لقدرتهم عليه ، وشويتم لحمه فى هذه النار .

قال : فقــمنا إليه فى خمسة رجــال فلقيناه كما وصف لنا فـقبضناه وأتينا به أصحــابنا وذبحناه وشوَينا لحــمَه فى تلك النار ، وطلبنا الفقـير الذى نبه عليه ، فلم نجده ولا وقعنا له على أثر ، فطال عجبنا منه .

مدينة بعلبك :

ثم وصلنا من جــبل لبنان إلى مدينة بعْلَبَك ، وهى حــسنة قديمة من أطيب مدن الشام ، تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة ، وتخترق أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهى دمــشق فى خيراتها المتناهية . وبها من حب الملوك مــا ليس فى سواها ، وبهــا يُصنع الدبس المنسوب إليــها ، وهو نوع من الرب يصنعــونه من العنب ، ولهم تربة يضـعونهــا فيــه ، فيــجمــد وتكسرُ القُلَّة التى يكون بهــا فيبــقى قطعةً واحــدةً ، وتصنع منه الحلواء ، ويجعل فيها الفستق واللوز ويــسمونها حلواء بالمَلْبَن ، ويسمونها أيضاً بــجلد الفرس ، وهى كـثيرة الألبــان ، وتجلب منها إلــى دمشق ، وبينهما مــسيرَة يوم للمجدّ ، وأما الرفــاق فيخرجون من بعلبك فيــبيتون ببلدةٍ صغــيرة ، تعرف بالزبــدانى ، كثيــرة الفواكه ، ويغــدون منها إلى دمشق .

ويُصنع ببعلبك الثياب المنسوبة إليها من الإحرام وغيره ، ويصنع بها أوانى الخــشب ومــلاعقــه التى لا نظيــر لهــا فى البلاد ، وهــم يسمــون الصحِاف بالدسوت ، وربما صنعوا الصّحفَة ، وصنعوا صحفةً أخرى تسع

فى جوفها وأخرى فى جوفها إلى أن يبلغوا العَشر ، يخيل لرائيها أنها صحفة واحدةٌ ، وكذلك الملاعق يصنعون منها عشراً ، واحدة فى جوف واحدة ، ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل فى حزامه ، وإذا حضر طعاماً من مع أصحابه أخرج ذلك ، فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ، ثم يخرج من جوفها تسعاً.

وكان دخولى لبعلبك عشية النهار ، وخرجت منها بالغدو لفرط اشتياقى إلى دمشق ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين إلي مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية .

دمشق :

ودمشق هى التى تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً ، وكل وصف ، وإن طال ، فهو قاصر عن محاسنها ولا أبدع مما قاله أبو الحسين بن جبير ، رحمه الله تعالى ، فى ذكرها قال: وأما دمشق ، فهى جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها ، وعروس المدن التى اجتليناها . قد تحلت بأزاهير الرياحين . وتجلت فى حلل سندسية من البساتين . وحلت موضع الحسن بالمكان المكين . وتزينت فى منصتها أجمل تزيين . وتشرفت بأن أرى المسيح ، عليه السلام ، وأمه منها إلى ربوة ذات قرار معين . ظل ظليل . وماء سلسبيل

تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل . ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل . تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا إلى معرّس للحسن ومقيل . وقد سئمت أرضها كثرة الماء . حتى اشتاقت إلى الظماء . فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : اركض برجلك ، هذا مغتسل بارد وشراب . وقد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر . والأكمام بالثمر . وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر . وكل موضع لحظت بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد البصر . ولله صدق القائلين عنها ، إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لاشك فيها . وإن كانت فى السماء فهى تساميها وتحاذيها .

استطراد لابن جزى:

قال ابن جزى : وقد نظم بعض شعرائها فى المعنى فقال:

إن تكن جنة الخلود بأرض فدمشق ، ولا تكون سواها

أو تكن فى السماء فهى عليها قد أبدّتْ هواءها وهواها

بلد طيب ورب غفور ، فاغتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسى الوادى آشى نزيل تونس ، ونص كلام ابن جبير ثم قال : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد . وتوّق الأنفس للتطلع

على صورتهـا بما أفاد . هذا وإن لم تكن له بهـا إقامة . فـيعـرب عنها بحقـيقة علامـة . ولا وصف ذهبيات أصـيلها ، وقد حـان من الشمس غروبها ، ولا أزمان جفولها المنوعات ، ولا أوقات سرورها المنبهات . وقد اختصّ من قال ألفيتها كمـا تصف الألسن . وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين .

قـال ابن جزى : والذى قـالته الشعراء فى وصـف مـحاسـن دمشق لا يحصـر كثرة ، وكان والدى ، رحمه الله ، كثيراً ما ينشـد فى وصفها هذه الأبيات ، وهى لشرف الدين بن محسن ، رحـمه الله تعالى :

دمـشق بنا شوْق إليـهـا مبـرح   وإن لج واشٍ أو ألحّ عـــذولُ

بلاد بهـا الحـصبـاء در وتربهـا   عبـير وأنفاس الـشمال شـمول

تسلسل فيهـا ماؤها وهو مطلق   وصح نسـيم الروض وهو عليل

وهـذا مـن النمط العـالى من الشعر ، وقـال فيهـا عرقلة الدمـشقى الكلبى :

الشـام شامة وجنـةُ الدنيا كـما   إنسان مـقلتها الـغضيـضة جلقُ

من آسـهـا لك جنةٌ لا تنقـضى   ومن الشـقيـق جهنمٌ لا تحـرق

وقال أيضاً فيها :

أمـا دمـشق فـجنـات مـعـجلة ‌ ‌ ‌ للطالبين ، بهـا الولدان والحورُ

ما صـاح فيها على أوتاره قـمر ‌ ‌ ‌ إلا يغنيـه قـــمـرى وشـحـرور

يا حـبـذا ودروع الماء تنسـجهـا ‌ ‌ ‌ أنامـل الريـح إلا أنهـــا زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك . وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف الأسدى :

سقى دمـشق الله غيـثاً مـحسناً ‌ ‌ ‌ من مــســتــهلّ ديمة دهاقِهــا

مـدينة ليس يـضـاهى حـسنهـا ‌ ‌ ‌ فى سـائر الدنـيـا ولا آفـاقـهـا

تودّ زوراء الـعــراق أنـهـــا ‌ ‌ ‌ منهـا ، ولا تعزى إلى عـراقهـا

فأرضـهـا مثل الـسماء بهـجة ، ‌ ‌ ‌ وزهرها كـالزهر فى إشـراقـهـا

نسيم روضها مـتى ما قد سرى ‌ ‌ ‌ افـتكّ أخا الهـمـوم من وثاقهـا

قـد رتـع الربيع فى ربوعـــهـا ‌ ‌ ‌ وسـيقتِ الدنيـا إلى أسـواقهـا

لا تسـأم العـيـون والأنوف من ‌ ‌ ‌ رؤيتـها يومـاً ولا اسـتنشـاقهـا

ومما يناسب هذا للقاضى الفاضل عبد الرحمن البيسانى فيها من قصيدة وقد نسبت أيضاً لابن المنير :

يا برق هل لك فى احتمال تحية عذبت فصارت مثل مائك سلسلا

باكِرْ دمشق بمشْقِ الحيا زهرَ الرياض مرصعاً ومكللا

واجرُرْ بجيرون ذيولك واختصص مغنى تأزر بالعلا وتسربلا

حيث الحيا الربعى محلول الحيا ، والوابل الرِّبعى مفرى الكلا

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى سعد العنسى الغرناطى المدعو نور الدين :

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا مكملاً، وهو فى الآفاق مختصرُ

القصب راقصة، والطير صادحة والزهر مرتفع ، والماء منحدر

وقد تجلت من اللذات أوجهها لكنها بظلال الدوْحِ تستتر

وكلٌّ وادٍ به موسى يفجره ؛ وكان روضٍ على حافته الخضر

وقال أيضاً فيها :

خَيِّم بجلق بين الكاس والوتر فى جنة هي ملْءُ السمع والبصرِ

ومتِّع الطرف فى مرأى محاسنها ، وروض الفكر بين الروض والنهر
وانظر إلى ذهبيات الأصيل بها ، واسمع إلى نغمات الطير فى الشجر
وقلْ لِمنْ لامَ فى لذاته بشراً دعنى فإنك عندى سوقةُ البشر

وقال أيضاً فيها :

أما دمشق فجنَّةٌ ينسى بها الوطنَ الغريبْ
لله أيام السبوت بها ، ومنظرها العجيب
أُنظر بعينك هل ترى إلا محباً أو حبيب
فى موْطنٍ غنّى الحمام به على رقص القضيب
وغدَتْ أزاهر روضهِ تختال فى فرح وطيب

وأهل دمشق لايعملون يوم السبت عملاً أنما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم إلى الليل . وقد طال بنا الكلام فى محاسن دمشق فليرجع إلى كلام الشيخ أبى عبد الله .

استئناف رواية ابن بطوطة :

الجامع الأموى :

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفـالاً ، وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسنًا وبهجة وكمالاً ، ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه . وكان الذى تولى بناءه وإتقانه أمـير المؤمنين الوليـد بن عبد الملك بن مـروان ، ووجه إلى ملك الروم بقسطنطينية يـأمره أن يبعث إليه الصناع فبعث إليـه اثنى عشر ألف صانع ، وكان موضع المسجد كنيسـة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الـوليد ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، من إحدى جـهاتهـا بالسيف ، فانـتهى إلى نصف الكنيسة ؛ ودخل أبو عبيدة بن الجراح ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، من الجهة الغربية صلحًا ، فانتهى إلى نصف الكنيسة ، فـصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة مسجداً ، وبقى النصف الذى صالحوا عليه كنيسة . فلما عزم الوليـد على زيادة الكنيسة فى المسـجد طلب من الروم أن يبيـعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤوا من عوض ، فـأبوا عليه ، فانتزعها من أيديهم ، وكانوا يزعمـون أن الذى يهدمها يجن ، فذكروا ذلك للوليـد فقال : أنا أول من يجن فى سبيل الله . وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه ؛ فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم ، وأكذب الله زعم الروم .

وزيَّنَ هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحـسن . وذرع المسجد فى الطول من الشرق إلى الغرب

مائتـا خطوة ، وهى ثلاثمائة ذراع ، وعـرضه من القبلة إلى الجـوف مائة وخمس وثلاثون خطوة ، وهى مائتا ذراع ، وعدد شمسيات الزجاج الملونة التى فيه أربع وسـبعون ، وبلاطاته ثلاثة مستـطيلة من شرق إلى غرب ، سَعَة كل بلاط منهـا ثمانى عـشرة خطوة وقد قـامت على أربع وخـمسين سارية وثمـانى أرجل حصـية تتخللهـا ، وست أرجل مرخـمة مرصـعة بالرخام الملون ، قد صـور فيها أشكال محاريب وسـواها ، وهى ثقل قبة الرصاص التى أمام المحراب المسـماة بقبة النسر كأنهم شبهـوا المسجد نسراً طائراً والقـبة رأسـه ، وهى من أعـجب مبـانى الدنيـا ، ومن أى جهـة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة فى الهواء منيفة على جميع مبانى البلد .

وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا ، وبها من السوارى ثلاث وثلاثون ، ومن الأرجل أربع عشـرة ، وسعة الصحن مـائة ذراع ، وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنًا وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا فمن قارئ ومحدث وذاهب، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة ، وإذا لقى أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبًا له أسرع كل منهما نحو صاحبه وحط رأسه .

وفى هذا الصحن ثلاث من القباب إحداها فى غربية ، وهى أكبرها، وتسمى قبـة عائشة أم المؤمنين ، وهى قائمة على ثمـانى سوار من الرخام

مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة ، مسقفة بالرصاص ، يقال : إن مال الجامع كان يختزن بها .

وذكر لى أن فوائد مستغلات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهبًا فى كل سنة ؛ والقبة الثانية من شرقى الصحن على هيئة الأخرى إلا أنها أصغر منها ، قائمة على ثمان من سوارى الرخام ، وتسمّى قبة زين العابدين ؛ والقبة الثالثة فى وسط الصحن ، وهى صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الإلصاق قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد فى وسطه أنبوب نحاس يمج الماء إلى علو فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب لجين ، وهم يسمونه قفص الماء ، ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب ؛ وفى الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى إلى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد علي بن أبى طالب؛ رضي الله عنه ، ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقى البلاطان الغربى والجوفى موضع يقال إن عائشة ، رضى الله عنها ، سمعت الحديث هنالك .

وفى قبلة المسجد المقصورة العظمى التى يؤم فيها إمام الشافعية ؛ وفى الركن الشرقى منها ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذى وجهّه أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، إلى الشام . وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة ، فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم ، وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادّعوا عليه شيئًا . وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ، ويذكر أهل التاريخ أنه أول

محراب وضع فى الإسـلام . وفيه يؤم إمام المالكيـة ؛ وعن يمين المقصورة محراب الحنفـية ، وفيه يؤم إمـامهم ، ويليه محراب الحنـابلة ، وفيه يؤم إمامهم .

ولهذا المسجد ثلاث صوامع : إحداها بشرقيه ، وهى من بناء الروم، وبابها داخل المسجـد ، وبأسفلها مطهرة ، وبيـوت للوضوء يغتسل فـيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ، ويتـوضأون ؛ والصومعة الثانية بغربيه ، وهـى أيضًا مـن بناء الروم والـصومـعـة الثـالثة بشـمـاله وهى من بناء المسلمين . وعدد المؤذنين به سبـعون مؤذنًا ؛ وفى شرقى المسجد مـقصورة كبـيرة فيـها صهريج مـاء . وهى لطائفة الزيالعـة السودان ، وفى وسط المسجد قبـر زكريا ، عليه السلام ، وعليه تابوت مـعترض بين أسطوانتين مكسو بثـوب حرير أسـود معلم ، فـيه مكتوب بالأبيض « يـا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى » .

وهذا المسجد شهـير الفضل ؛ وقرأت فى فضائل دمـشق عن سفيان الثورى أن الصلاة فـى مسجد دمشق بثـلاثين ألف صلاة ، وفى الأثر عن النبى ، ﷺ ، أنه قال : يعـبد الله فيـه بعد خراب الـدنيا أربعين سنة . ويقال إن الجدار القبلى منه وضعه نبى الله هود ، عليه السلام ، وإن قبره به . وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الأحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر ، ﷺ .

ومن فضـائل هذا المسجـد أنه لا يخلو عن قراءة القـرآن والصلاة إلا

قليلاً من الزمان ، كما سنذكره ، والناس يجتمعون به كل يوم إثر صلاة الصبح فيقرأون سبعًا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن . وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم ، وهم ستماية إنسان ، ويدور عليهم كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته .

وفى هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك ، ويتوضأون من المطاهر التى بداخل الصومعة الشرقية التى ذكرناها ؛ وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئًا من ذلك .

وفى هذا المسجد أربعة أبواب : باب قبلى يعرف بباب الزيادة ، وبأعلاه قطعة من الرمح الذى كانت فيه راية خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ؛ ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ، ومنه يُذهب إلى دار الخيل ؛ وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين ، وهى سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلى من أحسن أسواق دمشق ؛ وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبى سفيان ، رضي الله عنه ، ودور قومه، وكانت تسمّى الخضراء ، فهدمها بنو العباس ، رضى اللّه عنهم ، وصار مكانها سوقًا ؛ وباب شرقى ، وهو أعظم أبواب المسجد ، ويسمى بباب جيرون ، وله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم طويل أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال ؛ وفى جهة اليسار منه مشهد عظيم

كان فيه رأس الحسين ، رضي الله عنه ، وبإزائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، وبه ماء جار .

وقد انتظمت أمام البلاط درج يُنحدر فيها إلى الدهليز ، وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أغمدة قد قامت كالجذوع طوال ، وبجانبى هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم ، وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصُناع أوانى الزجاج العجيبة .

وفى الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود منها دكانان للشافعية ، وسائرها لأصحاب المذاهب ، يكون فى الدكان منها الخمسة والستة من العُدول ، والعاقد للأنكحة من قبل القاضى ، وسائر الشهود مفترقون فى المدينة ؛ وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد ؛ وفى وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تقلها أعمدة رخام ، وفى وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع فى الهواء أزيد من قامة الإنسان يسمونه الفوارة ، منظره عجيب .

وعن يمين الخارج من باب جيرون ، وهو باب الساعات ، غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها أبواب على عدد ساعات النهار ، والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة ، وظاهرها بالصفرة ، فإذا ذهبت ساعة من النهار ، انقلب الباطن الأخضر ظاهراً والظاهر الأصفر

باطنًا ، ويقـال : إن بداخل الغـرفة من يتـولى قلبـها بـيده عند مـضى الساعات .

والباب الغـربى يعرف بباب الـبريد ، وعن يمين الخارج منه مـدرسة الشافـعية ، وله دهليـز فيه حـوانيت للشماعين وسـماط لبيع الفـواكه ، وبأعلاه باب يصعد إليه فى درج له أعمدة سامية فى الهواء ، وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان .

والباب الجـوفى يعرف ببـاب النطفانيين ، وله دهليـز عظيم ، وعن يمين الخارج منه خانقاه تعرف بالشميـعانية فى وسطها صهريج ماء ، ولها مطاهر يجرى فيها الماء ، ويقال : إنهـا كانت دار عمر بن عبد العزيز ، # ، وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة دار وضـوء يكون فيها نحو مائة بيت تجرى فيه المياه الكثيرة .

أئمة الجامع الأموى :

وأئمتـه ثلاثة عشر إمـامًا : أولهم إمام الشافـعية ، وكان فى عـهد دخولى إليهـا إمامهم قاضى القضـاة جلال الدين محمد بن عـبد الرحمن القـزوينى من كبـار الفـقهـاء ، وهو الخطيب بالمسـجـد ، وسـكناه بدار الخطابة ، ويخرج من باب الحـديد إزاء المقصورة ، وهو البـاب الذى كان يخـرج منه معـاوية ، رضي الله عنه ؛ وقد تولـى جلال الدين بعـد ذلك قضـاء القضاة بالديار المصرية بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم

كانت دينًا عليه بدمشق . وإذا سلم إمام الشافعية من صلاته قام للصلاة أمام مشهد عليّ ثم أمام مشهد الحسين ثم أمام مشهد الكلاسة ثم أمام مشهد أبى بكر ثم أمام مشهد عمر ثم أمام مشهد عثمان ، رضى الله عنهم أجمعين .

ثم إمام المالكية ، وكان إمامهم فى عهد دخولى إليها الفقيه أبو عمر ابن الوليد بن الحاج التجيبى القرطبى الغرناطى المولد نزيل دمشق ، وهو يتناوب الإمامة مع أخيه ، رحمهما الله .

ثم إمام الحنفية ، وكان إمامهم فى عهد دخولى إليها الفقيه عماد الدين الحنفى المعروف بابن الرومى ، وهو من كبار الصوفية ، وله شياخة الخانقاه الخاتونية ، وله أيضًا خانقاه بالشرف الأعلى .

ثم إمام الحنابلة وكان فى ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف أحد شيوخ القراءة بدمشق .

ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة فى هذا المسجد من أول النهار إلى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك .

المدرسون والمعلمون به :

ولهذا المسجد حلقات التدريس فى فنون العلم ، والمحدثون يقرأون

كتب الحديث على كراسى مرتفعة ، وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحًا ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم ، وهم لا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيهًا لكتاب الله تعالى ، وإنما يقرأون القرآن تلقينًا .

ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها فينصرف الصبى من التعليم إلى التكتيب وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره .

ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعى ؛ ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ؛ ولما ولى القضاء بمصر جلال الدين القزوينى وجه إلى أبى اليسر الخلعة والأمر بقضاء دمشق ، فامتنع من ذلك ؛ ومنهم الإمام العالم شهاب الدين بن جهيل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفًا من أن يقلد القضاء، فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين ، لسان المتكلمين ، علاء الدين القونوى وهو من كبار الفقهاء ؛ ومنهم الإمام الفاضل بدر الدين علي السخاوى المالكى ، رحمة الله عليهم أجمعين .

قضاة دمشق :

قد ذكرنا قاضى القضاة الشافعى بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى ، وأما قاضى المالكية فهو شرف الدين خطيب الفيوم ، حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء ، وهو شيخ شيوخ الصوفية ، والنائب عنه فى القضاء شمس الدين بن القفصى . ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية .

وأما قاضى قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحورانى ، وكان شديد السطوة ، وإليه يتحاكم النساء وأزواجهن ، وكان الرجل إذا سمع اسم القاضى الحنفى أنصف من نفسه قبل الوصول إليه .

وأما قاضى الحنابلة فهو الإمام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة ينصرف على حمار له ، ومات بمدينة رسول الله ﷺ تسليمًا ، لما توجه للحجاز الشريف .

قصة الفقيه ذى اللوثة :

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون إلا أن فى عقله شيئًا ، وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، ويعظهم على المنبر ؛ وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ، ورفعوه إلى الملك الناصر ، فأمر بإشخاصه إلى القاهرة ، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر ، وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال : إن

هذا الرجل قـال كذا وكـذا ، وعدّد ما أنكـر على ابن تيمـية ، وأحـضر العقود بذلك ، ووضعها بين يدى قاضى القضاة .

وقال قاضى القضاة لابن تيـمية : ما تقول ؟ قال : لا إله إلا الله . فأعـاد عليه ، فـأجـاب بمثل قـوله ، فأمـر الملك الناصر بسـجنه فسـجن أعوامًا ، وصنف فى السجن كتـابًا فى تفسير القرآن سمـاه بالبحر المحيط فى نحو أربعين مجلداً .

ثم إن أمه تعـرضت للملك الناصر ، وشكت إليه ، فأمـر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية ، وكنت إذ ذاك بدمـشق ، فحضرته يوم الجمـعة ، وهو يعـظ الناس على منبر الجـامع ويذكرهم فكان من جـملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سـماء الدنيا كنزولى هذا ، ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء ، وأنكر ما تكلم به ، فقامت العامة إلى هذا الفقيه ، وضربوه بالأيدى والنعال ضربًا كثيراً حتى سقطت عـمامته ، وظهر علـى رأسه شاشية حـرير ، فأنكروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عز الدين ابن مسلم قاضى الحنابلة ، فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك ، فـأنكر فقهاء المالكيـة والشافعية مـا كان من تعزيزه ، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز ، وكان من خيار الأمراء وصلحائهم ، فكتب إلى الملك الناصر بذلك ، وكـتب عقداً شرعيًا على ابن تيمـية بأمور منكرة منهـا أن المطلق بالثلاث فى كلمة واحـدة ، ومنها المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القـبر الشريف ، زاده الله طيبًا ، لا يقصر

الصلاة ، وسوى ذلك مما يشبهه ، وبعث العقد إلى الملك الناصر ، فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات فى السجن .

مدارس دمشق :

أعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس ، أعظمها العادلية ، وبها يحكم قاضى القضاة ، وتقابلها المدرسة الظاهرية ، وبها قبر الملك الظاهر ، وبها جلوس نواب القاضى ؛ ومن نوابه فخر الدين القبطى، وكان والده من كتاب القبط ، وأسلم ؛ ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك ، وعزل لأمرٍ أوجب عزله .

قصة الشيخ ظهير الدين وقاضى القضاة :

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمى ، وكان سيف الدين تنكيز ملك الأمراء يتتلمذ له ويعظمه ، فحضر يومًا بدار العدل عند ملك الأمراء وحضر القضاة الأربعة فحكى قاضى القضاة جمال الدين بن جملة حكاية ، فقال له ظهير الدين : كذبت ! فأنف القاضى من ذلك وامتعض له ، فقال للأمير : كيف يكذبنى بحضرتك ؟ فقال له الأمير : احكم عليه ، وسلمه إليه ، وظنه أنه يرضى بذلك ، فلا يناله بسوء ، فأحضره القاضى بالمدرسة العادلية وضربه مائتى سوط ، وطيف به على حمار فى مدينة دمشق ، ومناد ينادى عليه ، فمتى فرغ من ندائه ضربه

على ظهره ضربة ، وهكذا العادة عنـدهم . فبلغ ذلك ملك الأمراء فأنكره أشد الإنكار ، وأحضـر القضاة والفقـهاء ، فأجمعـوا على خطأ القاضى وحكمه بغير مـذهبه ، فإن التعزير عند الشافـعى لا يبلغ به الحد ، وقال قاضى القـضاة المالكية شرف الدين : قـد حكمت بتفسيـقه ، فكتب إلى الملك الناصر بذلك فعزله .

وللحنفية مدارس كثيـرة ، وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين ، وبها يحكم قاضى القضاة الحنفية .

وللمالكيـة بدمشق ثلاثُ مدارس إحداها الصـمصاميـة ، وبها سكن قاضى القضاة المالكية وقـعوده للأحكام ؛ والمدرسة النورية عمَّرَها السلطان نور الدين محـمود بن زنكى ، والمدرسة الشـرابشية عمَّرَها شـهاب الدين الشرابشى التاجر ، وللحنابلة مدارس كثيرة ، أعظمها النجمية .

وصف أبواب دمشق :

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب منها باب الفراديس ؛ ومنها باب الجابية؛ ومنها الباب الصغير ، وفيما بين هذيـن البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمَنْ بعدهم .

قال محـمد بن جُزى : لقد أحسن بعض المتـأخرين من أهل دمشق فى قوله :

دمشقُ فى أوصافها جنّةُ خُلـــدٍ راضِيَهْ
أمَا تــرى أبوابَهـا قـــدَ جُعِلَتْ ثمانيَهْ

بعض المشاهد والمزارات فى دمشق :

فمنها بالمقبرة التى بين باب الجابية والباب الصغير قبرُ أمّ حنيفة بنت أبى سفيـان أم المؤمنين ، وقبر أخيهـا أمير المؤمنين معـاوية ، وقبر بلالٍ مؤذن رسول الله ﷺ ؛ ورضى الله عنهم أجمـعين ، وقبر أُوَيس القرنى، وقبر كعب الأحبار ، رضى اللّه عنهما .

ووجدتُ فـى كتـاب المعلّم فى شرح صـحيح مـسلم للقُرطبى : أن جماعة من الصحابة صحـبهم أُوَيس القرنى من المدينة إلى الشام ، فتوفى فى أثناء الطريق فى برية لا عمارة فيها ولا مـاء ، فتحيروا فى أمره فنزلوا فوجدوا حنوطًا وكفنًا وماء ، فعجبوا من ذلك ، وغسلوه وكفنوه ، وصلّوا عليه ودفنوه ثم ركبـوا ، فقال بعضهم : كـيف نترك قبره بغيـر علامة ؟ فعادوا فلم يجدوا للقبر من أثر .

قـال ابن جُزى : ويقـال إن أويسًا قـتل بصـفّين مـع علي ، عليـه السلام، وهو الأصح ، إن شاء الله . ويلى باب الجـابية باب شرقى عنده جبانة فيهـا قبر أبى بن كعب صاحب رسول الله ﷺ ، وفيهـا قبر العابد الصالح أرسلان المعروف بالباز الأشهب .

سبب تسميته الباز الأشهب:

يُحكى أن الشيخ الوالى أحمد الرفاعى ، رضي الله عنه ، كان مسكنه بأم عبيدة بمقربة من مدينة واسط ، وكانت بين ولى الله تعالى أبى مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ، ويقال : إن كل واحد منهما كان يسلّم على صاحبه صباحًا ومساء ، فيرد عليه الآخر . وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته ، فلما كان فى إحدى السنين جذها على عادته ، وترك عذقًا منها ، وقال : هذا برسم أخى شعيب ، فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة ، واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ، ومع الشيخ أحمد خديمه أرسلان ، فتفاوضا الكلام ، وحكى الشيخ حكاية العِذق ، فقال له أرسلان : عن أمرك يا سيدى آتيه به ، فأذن له ، فذهب من حينه وأتاه به ، ووضعه بين أيديهما ، فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازًا أشهب قد انقض عليه النخلة فقطع ذلك العِذق وذهب به فى الهواء .

وبغربى دمشق جبَّانة تعرف بقبور الشهداء ، فيها قبر أبى الدرداء وزوجته أم الدرداء ، وقبر فضالة بن عُبيد ، وقبر واثلة بن الأسقع ، وقبر سهل بن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة ، رضى الله عنهم أجمعين .

وبقرية تعرف بالمنيحة شرقى دمشق ، وعلى أربعة أميالٍ منها قبر سعد بن عبادة ، رضي الله عنه ، وعليه مسجد صغير حسن البناء ، وعلى رأسه حجر مكتوب : هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله ،

صلى الله عليه وسلم تسليمًا ؛ وبقربه قبلى البلـد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت علي بن أبى طالب من فاطمـة ، عليهم السلام ؛ ويقال : إن اسمها زينب وكناها النبى ، ﷺ ، أم كلثوم لشبـهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ ؛ وعليه مسجد كـبير ، وحوله مساكن وله أوقاف ، ويسميه أهل دمـشق قبر الست أم كلثوم ؛ وقبر آخر يـقال إنه قبر سكينة بنت الحسين بن علي ، عليه السلام .

وبجامع النيرب من قرى دمشق فى بيت بشرقـيه قبر يقال إنه قبر أم مريم، عليهـا السلام؛ وبقرية تعرف بداريّا غرب البلد، على أربعـة أميال منهـا قبـر أبى مسلم الخـولانى، وقبـر أبى سليمـان الدارانى، رضى الله عنهما.

ومن مشاهد دمـشق الشهيرة البـركة مسجد الأقـدام ، وهو فى قبلى دمشق على مـيلين منها على قـارعة الطريق الأعظم ، الآخذ إلى الحـجاز الشريف والبيت المقدس وديـار مصر ، وهو مسجد عظيم كثـير البركة ، وله أوقاف كـثيرة ، ويعظمـه أهل دمشق تعظيمًا شـديداً . والأقدام التى ينسب إليها هى أقدام مصورة فى حجر هناك ، يقال إنها أثر قدم موسى، عليه السلام ؛ وفى هذا المسجد بيت صغيـر فيه حجر مكتوب عليه : كان بعض الصالحين يـرى المصطفى ، ﷺ ، فى النوم ، فيقـول له : ها هنا قبـر أخى موسى ، عليـه السلام ؛ وبمقـربة من هذا المسجـد على الطريق مـوضع يعرف بالكثـيب الأخضـر ؛ وبمقـربة من بيت المقدس وأريحـاء موضع يعرف بالكثيب الأحمر تعظمه اليهود .

الطاعون الأعظم فى دمشق :

شاهدت أيام الطـاعون الأعظم بدمشق فى أواخـر شهر ربـيع الثانى سنة تسع وأربعين وسبعمائة من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه ، وهو : أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغـون شاه أمر مناديًا ينادى بدمشق أن يصـوم الناس ثلاثة أيام ، ولا يطبخوا بالسوق ، فـصام الناس ثلاثة أيام متوالية ، كان آخرها يوم الخميس ، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضـاة والفقهاء وسـائر الطبقات على اخـتلافها فى الجـامع حتى غص بهم، وباتوا ليلة الجـمعـة ما بين مـصل وذاكر وداع ؛ ثم صلوا الصـبح وخرجوا جميعًا على أقدامـهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة ، وخرج جميع أهل البلد ذكـوراً وإناثًا ، صغاراً وكباراً ، وخرج اليـهود بتوراتهم والنصـارى بإنجيلـهم ، ومعـهم النسـاء والولدان ، وجمـيـعهم باكـون متضرعون إلى الله بكتبه وانبيائه ، وقصدوا مسجد الأقدام ، وأقاموا به فى تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال ، وعادوا إلى البلد ؛ فصلوا الجمعة ، وخفف الله تعالى عنهم ما انتهى عدد الموتى إلى ألفين فى اليوم الواحد ؛ وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفًا فى يوم واحد .

وبالباب الشرقى من دمشق منارة بيضاء يقال إنها التى ينزل عيسى ، عليه السلام ، عندها حسبما ورد فى صحيح مسلم .

ومن مشاهده بالغـرب منه مغارة الدم ، وفوقهـا بالجبل دم هابيل بن

آدم ، عليه السلام . وقد أبقى الله منه فى الحجارة أثراً محمراً ، وهو الموضع الذى قتله أخوه به ، واجترّه إلى المغارة ؛ ويذكر أن تلك المغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط ، صلى الله عليهم أجمعين ؛ وعليها مسجد متقن البناء يصعد إليه على درج ، وفيه بيوت ومرافق للسكنى ، ويفتح فى كل يوم اثنين وخميس ، والشمع والسرج توقد فى المغارة .

ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم ، عليه السلام ، وعليه بناء ، وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع ، يذكر أنه أوى إليها سبعون من الأنبياء ، عليهم السلام ، وكان عندهم رغيف ، فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعًا ، صلى الله عليهم . وعلى هذه المغارة مسجد مبنى والسرج توقد به ليلاً ونهاراً .

ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة ، ويذكر أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبى ، وبعضهم يقول سبعين ألفًا ؛ وخارج المدينة المقبرة العتيقة ، وهى مدفن الأنبياء والصالحين ، وفى طرفها مما يلى البساتين أرض منخفضة غلب عليها الماء يقال إنها مدفن سبعين نبيًا ، وقد عادت قراراً للماء ، ونزهت من أن يدفن فيها أحد .

الأوقاف بدمشق وفضائل أهلها وعوائدهم :

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها ، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير .

قصة المملوك الصغير والصحفة :

مررت يومًا ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكًا صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت ، واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأوانى ، فجمعها وذهب الرجل معه إليه ، فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن ، وهذا من أحسن الأعمال ، فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن ، أو ينهره ، وهو أيضًا ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب ، جزى الله خيراً من تسامت همته فى الخير إلى مثل هذا .

وأهل دمشق يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد ، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش إمامة مسجد ، أو قراة بمدرسة ، أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه ، أو قراءة القرآن ، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة ، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة ، فمن كان بها غريبًا على خير لم يزل مصونًا عن بذل وجهه محفوظًا عما يزرى بالمروءة ؛ ومن كان من أهل المهنة والخدمة ، فله أسباب اخر من حراسة بستان ، أو أمانة طاحونة ، أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح ؛ ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك .

عادات رمضان فى دمشق :

ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده البتة ، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء ، فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية ، فإنهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم ، أو فى مسجد ، ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعًا .

ولما وردت دمشق وقعت بينى وبين نور الدين السخاوى مدرس المالكية صحبة ، فرغب منى أن أفطر عنده فى ليالى رمضان ، فحضرت

عنده أربع ليال ثم أصابتنى الحمى ، فغبت عنه ، فبعث فى طلبى ، فاعتذرت بالمرض ، فلم يسعنى عذراً . فرجعت إليه وبت عنده ، فلما اردت الانصراف بالغد منعنى من ذلك ، وقال لى : احسب دارى كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك ، وأمر بإحضار طبيب ، وأن يصنع لى بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء ، واقمت كذلك عنده إلى يوم العيد ، وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما أصابنى . وقد كان ما عندى من النفقة نفد ، فعلم بذلك فاكترى لى جمالاً وأعطانى الزاد وسواه وزادنى دراهم وقال لى : تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مهم ، جزاه الله خيراً .

وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصرانى من عادته أنه متى سمع أن مغربيا وصل إلى دمشق بحث عنه، وأضافه وأحسن إليه . فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته ، وكان يلازمه منهم جماعة ؛ وعلى هذه الطريقة أيضًا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره .

وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسى له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار . وهو ذو مال عريض . وذكروا أن الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام ، فسماه إذ ذاك بالصاحب .

ومما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت

أوصى أن يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره ، وعين أوقافًا عظيمة لقراء يقرأون سبعًا من القرآن الكريم فى كل يوم إثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة ، رضى الله عنهم ، حيث قبره ، فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدًا ، وبقى ذلك الرسم الجميل بعده مخلدًا .

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة ، فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بنى أمية وسواهما ، ويقف بهم أئمتهم كاشفى رؤوسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة ، ويتوخون الساعة التى يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ، ولا يزالون فى خضوع ودعاء وابتهال وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى أن تغيب الشمس ، فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات ، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها ، ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه .

ولهم أيضًا فى اتباع الجنائز رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة والقراء يقرأون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المبكية التى تكاد النفوس تطير لها رقة ، وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة ، فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه ادخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه ، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوا الجنازة ، وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربى من

الصحن بمقربة من باب البريد ، فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن يقرأون فيها ، ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ، ويقولون : بسم الله فلان الدين من كمال وجمال شمس وبدر وغير ذلك ، فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : فكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ، ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه .

ولأهل الهند رتبة عجيبة فى الجنائز أيضًا زائدة على ذلك : وهى أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه ، وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ، ويكسى القبر بالأكسية الفاخرة ، وتوضع حوله الرّياحين من الورد والنسرين والياسمين ، وذلك النّوار لا ينقطع عندهم ، ويأتون بأشجار الليمون والأترج ويجعلون فيها حبوبها إن لم تكن فيها ويجعلون صيوانًا يظلل الناس نحوه ، ويأتى القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ويؤتى بالربعات الكرام ، فيأخذ كل واحد منهم جزءًا فإذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضى ، ويقوم قائمًا ويخطب خطبة معدة لذلك ، ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر، ويذكر أقاربه ويعزيهم عنه ، ويذكر السلطان داعيًا له وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤوسهم إلى سمت الجهة التى بها السلطان ، ثم يقعد القاضى ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صبًا ، يبدأ القاضى ثم من يليه كذلك إلى أن يعمّ الناس أجمعين ثم يؤتى بأوانى السكر ، وهو

الجلاب محلولاً بالماء ، فيسقون الناس منه ويبدأون بالقاضى ومن يليه ثم يؤتى بالتنبـول ، وهم يعظمونه ويكرمون من يأتـى لهم به ، فإذا أعطى السلطان أحـداً منه ، فـهـو أعظم من إعطاء الذهب والخلع ، وإذا مـات الميت لم يأكل أهله التنبول إلا فى ذلك اليوم فيـأخذ القاضى أو من يقوم مقامه أوراقًا منه فيعطيها لولىّ الميت ، فيأكلها وينصرفون حينئذ .

رقم الإيداع ٩٩/١١٣٢٧

I.S.B.N-----------------------------

977 - 01- 6393 - 7

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولاموعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل ـ للشاب ـ للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك